نامسيا

رواية

تأليف

ماجدة السيد - فاطمة عبد الحميد

Odabaa
OD
2000
للنشر و التوزيع

رواية / نامسيا

تأليف / فاطمة عبد الحميد – ماجدة السعيد

الناشر / أدباء 2000

الطبعة الأولى / 2019

رقم الإيداع / 2019/9809

الترقيم الدولي :978-977-6721-01-2

تدقيق لغوي / أحمد محمد عبد المنعم

غلاف / أسامة أمين

تنسيق وإخراج / مدحت رأفت

حقوق النشر والطبع والتوزيع محفوظة لدار أدباء 2000 للنشر والتوزيع-2019

لا يجوز نشر هذا الكتاب أو جزء منه أو اختصاره بقصد الطباعة واختزان مادته العلمية أو نقله بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك دون موافقة خطية من الناشر مقدما .

كل ما نُشر في هذا العمل مسؤلية المؤلف ، ودار النشر غير مسؤله عن ما ورد في هذا العمل

دار أدباء 2000 للنشر والتوزيع

نشر – توزيع

01020812429 – 01099654718

العنوان: ش وهبه- فيصل – الجيزة

تلك هي الدنيا!

لمن لا يعرفها، فهي قاسية بما يكفي حتى نتركها تمضي، فليس من يحب هو من يرحل، إنّما من يفضّل البقاء حتى على حساب نفسه، فمن وجد روحه في تلك الحياة الغريبة، تلك الروح القادمة لأجله، المنبثقة من أضلعه وجُنُبات قلبه، ونبضاته الكثيرة المتداخلة حتى عاش لها، فقط يحيا حتى تحيا، يستشهد في سبيلها.

هكذا هو الحب الذي أعرفه، هذا هو الحب الذي عايشته وضحيت لأجله، لستُ امرأة ضعيفة حتى أتخلى عنه، حتى وإن وجدتُ غيره.

هكذا أنا أحببت .....

نامسبا.

إهداء

إلي..

من سكن الفؤاد ليكون خالدًا فيه ما دام حيًا.

إلي.. من عانق الروح فما عاد ينوي الرحيل.

إلي ..سكني وموطني وأماني.

إلي.. من كتب له من اسمُه نصيبًا؛ ليكون حاله معي كحال اسمُه تمامًا.

ثم إلي.. فتاة همست في قلبي بكلمات فكانت فطامًا له عن كل حزن، فنعم الصديقة هي.

ماجدة

إلى.. جدى الحبيب عبد اللطيف الذى علمني بصدر كيف أحيا.

إلى.. تلك الوريقات التى جمعتنى بك ماجدتي.

إلي.. من ساهم في رفع معنوياتي من عائلتي وصديقاتي

وأخيرًا ودائمًا إلى.. القلب المغرد فرحًا بحروف خرجت إلى النور ...إليكِ أمي.

فاطمة

الفصل الأول

(1)

في ذلك البهو الكبيرالواسع الطرقات، المنسدل عليه ستائر من الحرير الأحمر والأرجواني المعبأ برائحة الزهور، حوائط منقوشة بحملات "كاي رع" العظيم وبطولاتـــه وهـــو في مقدمة الجيوش بحصانه، يصول ويجول ويضرب بسيفه، ويتساقط الجنود على الجانبين، وصور أخرى وهو يطارد الغزلان البرية، وهو يعبد الإله رع، ويتقدم لـــه بـــالقرابين، وغيرها من مظاهر حياته المختلفة.

يجلس الفرعون الأعظم "كاي رع" بين خَدَمِه وعرشه يتناقش مع وزرائه.

اعتدل في جلسته مُتسائِلًا بجدية:

- أيها الوزير إخمانون! ما أخبار البلاد؟ أما زالت خزينة الدولة غير كافية لســـد العجز في السلاح والجنود؟

وقف الوزير مطرِقًا برأسه في احترام ليجيبه قائلًا:

أيها الملك العظيم وحامي البلاد من الأعداء! الخزينة غير كافية لأي حملات نقوم بها في الوقت الحالي، الناس جياع

ولا يقدرون على دفع الضرائب، ولقد أنهكت الحروب قوانا، وضرب الجفاف المحاصيل

الفرعون بتأفف ويلتفت إلى قائد جيشه مُتسائِلًا:

- كم يلزمك لتكتمل إعدادات الجيش حتى نستعد لفـــتح الجنـــوب ونـــأمن غاراتهم؟

يرد (يكن):

– أيها القائد العظيم، يلزمنا الكثير من الدروع والأقوات والسيوف .

الفرعون أحتقن في وجهه الدماء، وتوتّر في جلسته مفكِّرًا:

– إذًا بهذا المعدل نحن لا نأمن على أنفسنا، فالبلاد في حالــه فوضــي، إذًا مــا الحل؟!

أشار الفرعون للجميع بالأنصراف، وظل يفكر في قلق ذهابًا وإيابًا بلا توقــف، حــتى قاطع تفكيره صديقه العزيز "هاتورلا" يستأذنه بالدخول وهو مُتَصنِّعٌ السعادة :

– صباحٌ سعيدٌ أيّها الفرعون العظيم، عشتَ ملكًا لأبد الأبدين.

يحاول كاي رع أن يتماسك قائلًا وهو يستكُّ على أسنانه في تذمر:

– ما وراءك الساعة يا هاتورلا؟

ضيق بين حاجبيه مازحًا:

– ما هذا الجفاء؟! أنت تعرف أنني صديقك الوحيد الذي لم يُقتل حتى الآن.

الفرعون مُستنكرًا:

– ماذا؟!

هاتورلا مبررًا:

– الشعب جياع أيها الملك وأنت تريد الحرب!؟

أشار إليه الآخر بسبابته قائلًا في غضب:

- لا نزال في خطر الجنوب، وبلدة كارلولى السفاح، حتى نقتلهم ونمزقهم شـــر ممزق.

فتح ذراعيه مستنكرًا:

- إذًا فأين الجنود؟! إنهم يموتون من الجوع، و بذلك فإننا نلقي بهم إلى الجحيم.

ثم اقترب منه قائلًا بابتسامة:

- إنّك لفرعون عظيم وحكيم، أعلم أنّك لن تريد ذلك لجنودك.

الفرعون مُتعِضًا:

- لو شخص آخر غيرك خاطبني بتلك اللهجة لقتلته.

إذًا فقد حان الوقت كي آخذ هدنة مع نفسي، وأحاول أن أصلح الأمور الداخلية، إن هاتورلا اللئيم، آه يومًا ما سأقتله على تطاوله ذلك الشقي القصير، لم أجد أوفى منـــه صديقًا.

لمن لايعرف هاتورلا، فهو رجل ذكي صريح صعب المراس، لا تتناسب صفاته، قصره، وحاجباه الغليظان المتشابكان، وسرعه حركته، إنَّه صديق وَفِي، يعرف كيف يتكلم.

* * *

- أمسكوا هذا اللص

شخصٌ ملثم يجري بخفة، والآخر يلهث وراءه مُحاوِلًا اللحاق به، تظهر "نامسيا" بهذا الجسم الهزيل والعيون اللامعة والضحكه الطفولية، واثقة بنفسها، تتمايل خصلاتها

البنية فتعكسها أشعة الشمس على تلك العيون البنية في جمال ألمها، فتفعل في القلـــوب الأفاعيل.

فتتصادم مع ذلك اللص فتقع أرضًا وتتجرح يداها، ويكثر النـــاس فيمســـكون اللص. وجميلتنا مازالت تتألم وتحاول النهوض.

– أيتها الجميلة، أأساعدك؟ (قالها أحد المارة).

ردت غير مبالية:

– شكرًا أيّها الصعلوك.

* * *

أيها النهر العظيم! تعلم أنني ضعيفة جدًا، لا أقوى على حمل تلك الأعبـــاء، لمـــاذا منحني الإله رع جمالًا أكرهه؟ ألا يعلم بأنّ ليس لي أم؟ وأبي مع هؤلاء الجنـــود تاركًـــا إيّاي للجوع والهلاك،جعلني مطمعًا لكل صعلوك.

لست غبية كفاية حتى تساومني على جمالي، فأبيعه بالخبز والأرز ليسد جوعي، لماذا انطفأت منابعك!؟ وسددت علينا خيراتك؟.

فردّ عليّ:

– لن يحدِّثك مطلقًا.

فالتفتت بسرعة إلى هذا الغريب الذي غزا خصوصيتها ممتعضة:

– من أنت؟

تلاقت أعينهما، فليحفظك الإله رع، ما هذا الجمال؟! ما تلك العيون الجاسرة وتلـــك الشفاه الرقيقة!؟

أجابها وهو ينظر في عينيها:

– أحد الجنود المنهكين في تلك الحروب التافهة التي لا تنتهي.

سكت قليلاً ليتابع، متسائلًا بأبتسامة:

– ما أسمك؟

وما زال ينظر إليها متأملًا، فلم تستطع نامسيا النظر إليه، لتشيح بوجهها خجلًا بعيدًا عنه إلى الجهة الأخرى، وهمّت أن تنصرف.

في اليوم التالي... تتلوي نامسيا من الجوع والضعف، تبًّا لك أيها الجوع اللعين، ألم يحن الوقت لهؤلاء البؤساء من الوزراء أن يكفُّوا أيديهم عنا؟

طرق شديد (ردّت).

– من بالباب؟!

الغريب (بنبرة حادة).

– الشرطة، افتحي حالًا.

نامسيا تمشي متصلبة هزيلة، حتى وصلت إلى الباب، تفتحه ولا تقوى علـــى مســـكه الغريب مشيرًا لمن معه من جنود:

– اقبضوا عليها.

نامسيا بفزع وهي تتراجع إلى الخلف ببطء وثقل:

- لماذا؟!

الغريب بوجه جامد خالٍ من أي تعبير:

- لم تدفعوا حصتكم من الضرائب.

نامسيا بوهن، وتضرب حامليها بالأكفاف التي بكل تأكيد لن تهز فيهم شعرة واحدة:

- اتركوني، نحن لانملك أن نأكل، وتريدونني أن أدفع الضرائب!؟ أدفع أولًا ثمنًا لقطعة خبز، أيتها الألهة! أين العدل أيها العظيم رع؟

دموعها الذليلة تنهمر انهمارًا، وتُجركما تُجر البهائم، أذلك ذنب الضعيف؟ أذلـــك ذنبي وأنا بلا سند وبلا رفيق؟ أين العدل أيتها السماء؟

جاءها صوت من خلفها قوي، رصين:

- قفوا لحظة! .

ومن وراء تلك الدموع، ترى نامسيا ذلك الجندي مرة أخرى، إذًا يا ويلي، ألم يكفيني من الإهانة ما أتجرع؟

الغريب بصوت مخيف عالٍ:

- ماذا يا هذا، لِمَ تتدخل؟

الجندي مستنكرًا:

- سأدفع ما عليها..

ودفع لهم القطع المعدنية ليتركوها، ويمضوا باحثين عن ضعيف آخر غيرها، ترى هل يجد من يسعفه كهذا الجندي المجهول؟ وما إن اقترب منها حتى انهارت، ولم تقوَ رجلاها على التحمل أكثر، ليُغشي عليها في حالة إغماء، تمنّت لو تكون الموت، فحملها الجندي مسرعًا إلى دارها، وتكفل بها حتى أفاقت.

يا ربي، ما هذا الجمال! بالرغم من ضعفها إلا أنّها ما زالت قطة شرسة، لا تريد الاستسلام، لماذا لم تقتل نفسها أو تسلك طريقا غير مشرف مثلما انتشر؛ لتسد جوعها بدلًا من أن تُرمي في السجن؟! إنها لشريفة قوية، ويا لها من امرأة.

الجندي بصوت هادئ:

- استندي على يدي.

تتقاوى على نفسها ولا تمد يدها، وبغضب:

- ماذا تفعل هنا؟

ردّ مازحًا:

- أيتها المرأة التي لا تراعي جميلًا! تدين لي بالمال وهذا ردك؟

هي وبضعف:

- ماذا؟! لماذا دفعت؟ لم أطلب منك شيئًا.

هو يضحك ويضحك ويضحك، محدِّثًا نفسه "سأخرج قبل أن أقع في الحب".

الجندي مغادرًا:

– تركت لك نصف ما لدي من طعام.

تقاوم نامسيا جسدها على التحرك، وتستند على حوائط بيتها الطيني الصغير، هـذا البيت الذي لا يوجد به إلا بوصٌ مترابطٌ فى هيئة سرير، وفخارٌ كـان يُملَـؤ بالمـاء، ووعائان فارغان، ولكنَّه نظيف الأرضية، ونظيف من الغذاء والماء، وصلت نامسـيا إلى الطعام متلهفة، تشعر وكأنّها مشيت ساعات كثيرة، وها هي تنقضٌ على الطعام تأكلـه بشراهة ونهم.

* * *

في مجلس فرعون...

– ماذا؟! سيموت الناس وهم جياع بلا طعام وشراب، ما هذه الحياة؟ أما الموت أفضل؟!

قالها كاي رع وهو يصرخ وينهر وزراءه في تذمر.

– أوصلت حياة الناس إلى تلك الدرجة من الرخص!؟ أريد حلولًا جذرية والآن.

تدخّل الوزير إنمانون مقترحًا:

– أيها الملك العظيم! فلنخفف الضرائب قليلًا.

ليتبعه قائد الجيش قائلًا:

– الجيش يا مولاي معك وتحت إمرتك.

الفرعون مشيرًا إليهم:

- سنتقاسم ما بقي في القصر من طعام مع النـــاس، وليـــذهب المزارعـــون إلى ديارهم.

فأردف الوزير قائلًا:

- يا سيدي، فلنبعث الرسائل إلى البلاد المجاورة؛ نطلب منهم العون.

الفرعون بنبرة آمرة:

- اجمع لي ما بقي في منازل الكبراء، وما زاد عن حاجتـــهم، وكلِّمهـــم باســـم الشعب الجياع، تلك الكروش الغبية التي تريد لنفسها فقط الثراء والنهب.

الوزير مُطرِقًا برأسه أرضًا:

- سمعًا وطاعة يا مولاي.

فتدارك يكن الموقف قائلًا:

- لكن يا مولاي، مشكله الماء؟

التفت إليه الفرعون قائلًا بحزم:

- فليذهب بعض المنجمين مع فرقة عسكرية؛ لاستطلاع الآبار القريبة، وليـــأتوا لنا بخبر قريب.

ثم أشار إليهم قائلًا:

- انصرفوا حالًا ونفذوا.

وينصرف الجميع والكل متأهب للقيام بعمله، والحال في البلاد سرقة ونهب وقتل وتمردات وجواسيس يتكاثرون، والفقراء المعدمون يموتون جوعًا، ويزداد عددهم كمن يحصد المحصول بعد جفافه لقلته وضعفه، فيرميه كما ترميه الرياح بعيدًا. الخونة يشعلون الفتن ويزداد أعدادهم، ولكن قائد الجيوش الفطن كان مترقبًا لكل حركة، يقبض عليهم، ويزج بهم في السجون، عسى أن يهدأ الشعب.

بعد أيام قلائل وجد المنجمون بئرًا به ماء، وبدأ الجنود بتحميل الماء وتزويد الجميع به، وبدأت الاضطرابات تقل، ولكن نيرانها لا تنطفئ، فالكل متحامل على الفرعون، يكرهونه لِمَا وصل بهم من الجوع والموتى.

ونامسيا صغيرتنا الجميلة بدأت تستعيد قوتها ويسترد وجهها إشراقه ولمعانه، ويستعيد جسدها ليونته، وتستعيد صحتها، وازداد فرحها برجوع والدها مع باقي المزارعين إلى بيوتهم وذويهم.

نامسيا تتجه إلى ضفاف النهر الجاف وما زالت تفكر في ذلك الجندي المجهول الذي حماها من السجن، واختطفها من بين مخالب الموت، ترى أين ستقابله هذه المرة؟ لماذا لا يفارق خيالي، وأين أبحث عنه؟

ماذا تقولين؟! أجننتي أيتها الحمقاء؟ لم تريه سوى مرتين فقط وتشتاقين إليه!؟ ما هذا الهراء؟ أأُصبت في عقلي؟ ولكن بدونه كنت سأموت، لم أسأله عن اسمه.

ما زالت نامسيا تتذكر وتفكر في ذلك المجهول؟ أذلك هو الحب يا نامسيا؟

* * *

في قصر الفرعون يتجه "كاي رع" يمينًا ويسارًا محملًا بالخرائط والمقاييسات والميزانية، ومكبلًا بتوفير الغذاء الذي بدأ ينفد، ليقاطعه وزيره قائلًا:

- أيها الملك الحكيم والمحارب الجسور، بدأت الأحوال في الاتزان، ولكن مؤقتًا ياسيدي، ولم تصلنا أي رسائل من البلدان المجاورة.

ويأتي قائد الجيش مسرعًا، يلهث ويدخل على الملك بدون استئذان:

- أيها الملك، عذرًا، ولكن هذا خبر لا يحتمل التأجيل.

الفرعون ينظر إليه بعينين فاحصتين، راجيًا ألا يكون ما يفكر فيه، وإلا فإنها كارثة، ليقول برصانة:

- تكلم.

قائد الجيش بتوتر:

- ماركولي ياسيدي يجمع الحشود، متجها إلينا على رأس جيش كبير.

إذًا صدقت مخاوفي! (قالها الفرعون لنفسه)، ولكن لم يحن بعد وقت الاستسلام.

تدخل الوزير قائلًا:

- ياسيدي، الجنود منهارون والجوع يسيطر على الجميع، والكل بلا روح للمقاومة، فكيف نطلب منهم القتال؟

يكن متابعًا:

- للوزير رأيي أن نسلم المدينة بلا قتال؟ (ينظر للفرعون).

ولكن الفرعون يضع في تفكيره أن ما يقوله كلاهما صحيح. ما تلك الورطة اللعينة؟! فلينقذنا رع.

تعود نامسيا كل يوم إلى ضفاف نهر النيل، ولا تدري ما السبب، منتظرة خبرًا عن ذلك الجندي المجهول الذي تمتثل صورته أمامها، وقلبها يشتاق، ساعة تنكره، وساعة تعجب به، وما زالت لم تحسم أمر قلبها بعد، ولا ترى في نفسها حلًا.

عادت إلى بيتها لتجد والدها قد ذهب إلى باب القصر؛ ليأتي بحصتهم من الطعام. وها هو قد أتى من الخارج، شعر قصير أسود، وشارب غليظ، طويل القامة، خمري البشرة، ويحمل بين يديه حصتهم من الطعام.

– نامسيا! ما بك ياصغيرتي؟

ردّت بخمول قائلة:

– لا شيء يا أبي، فقط منهكة القوى.

تابع قائلًا:

– طلب يانى الزواج منك، إنَّه يملك حانة وعددًا من الأحصنة، وبيتًا طينيًا واسعًا، وأراه سيسعدك، فهو أحسن حالًا منا.

نامسيا بخوف وقلبها يرتجف خوفًا من فراق شخص لا تدري إذا كان أحبها أم متزوجًا، ولا تعلم عنه شيئًا:

– لا يا أبي.

ردّ بقلق:

- صغيرتي! أخشى عليكِ يومًا أذهب فيه ولا أعود، فالزحف على بلادنا قريب، وسأذهب لملاقاتهم، ولا أضمن أن أعود ثانية.

ثم اقترب منها يربت على كتفها ليتابع قائلًا:

- ياصغيرتي، أنتِ تعلمين كم تعذبت في تلك الفترة الماضية وحدك، فلتقبلي حتى يستريح قلبي قبل أن أذهب.

نامسيا بصوت مخنوق يمتزج به الدموع:

- لا يا أبي، أُفضِّل الموت على العيش بدونك، ولا أقوى على الزواج منه بالرغم أنني أعلم كم يحبني، ولكن قلبي لا يقبل، أرجوك يا أبي لا.

يتركها والدها ويأخذ ثيابه المهلهلة ليلبّي نداء الحرب، أمّا نامسيا فقد ودّعته باكية، ولا تدري لِمَا لم تتخلص من هذا الهذيان الذي لا تعلم ما نهايته؟ لماذا لم يظهر حتى الآن؟ أيمكن ألّا أراه قبل الحرب؟ فربما لا أراه أبدًا، وتهبُّ واقفة تهز رأسها في تخبط:

- لا لا مستحيل، ماذا أصابك يا نامسيا؟ فليذهب إلى الجحيم.

أحوال البلاد من سيئة لأسوأ، والجنود يتحاشدون من كل صوب وحدب إلى مكان تجمعهم، والجميع يتأسى ببعضه، واليأس يسري في الصفوف، والملك يحاول أن يوفر كل ما باستطاعته، وتغلبه الظروف، والحيرة والدسائس، وهارتورلا ينادي في الجنود؛ ليدافعوا عن بلادهم، ويتقدم الملك الصفوف ليستنجد بالإله رع، عسى أن يباركهم، ويحل عليهم الخير والنصر على عدوهم. الكل على أهبة الاستعداد، وكل ذلك وما زال الجنود لا يؤمنون بالنصر، يدفعهم إلى الموت الجوع والفقر.

ورغم ذلك، ما زالت تذهب يوميًا إلى الضفاف، لتقسم في نهاية الأمر ألّا تذهب هناك ثانية أبدًا بعد هذه المرة، الكل يا نامسيا مضطرب متوتر وأنت فقط قلقة ألا تريه مجددًا؟

- يا لغبائي! (محدثة نفسها)
- الطقس جميل الساعة، ظننت أنني لن أراك ثانية.(قالها الجندي)

لتتلفت إليه بلهفة غير مدركة ما ترى، وتتعلثم ولا تقوى على النهوض من مكانها، متسائلة بلهفة:

- من أنت؟ أين كنت ؟ لماذا اختفيت ؟ ظننت أنني لن.....

تقطعت الحروف على طرف لسانها في توتر، نادمة على قولها، خجلة منه، تنظر إلي الأرض، ووجهها جمرٌ يشتعل، وهو متعجب رصين مذهول يفكر، أوقعت في الحب مرة أخرى؟! يحاول التماسك قائلا بابتسامة:

- أقلقت عليِّ بهذا القدر؟ وأخيرًا نسمة من الهواء في حياتي.

ينظر إليها وعيناه تلمع، يتفحص وجهها الخجول، يذوب في كيانها وروحها المتمردة، يريد أن يخطفها من العالم بأسره بعيدًا عن هذا البؤس، وهي تنظر إلى الأرض باستحياء لا يتناسب مع طبيعتها المرحة، وطلاقة اللسان، ويبدو أنها الآن في موقف لا تُحسد عليه أبدًا.

ترد بتوتر وتلعثم:

- إن المال الذي دفعته لي، إنما دين عليّ وسأرده قريبًا، ولكن من أنت؟ هل أنت متز....تبًا لهذا اللسان! تماسك قليلًا.

يضحك ويضحك ناظرًا إليها ليجيبها قائلًا:

- لا، ولا أعلم من تلك التي تستطيع أن تتحمل حياة هذا الجنـــدي، حـــتى إن اختفى يومًا ما من الحياة.

يخفق قلبها حتى تستطيع سماع طرقاته في أضلعها كقارع الطبول في الحرب، يقسم مـــن يجاورها أنَّه يسمعه بوضوح، وكذلك قلب جندينا المجهول، تحاول التماسك لتبدو متزنة ثابتة، فبادرها مستأذنًا للرحيل وهو يقول:

- أستمحيك عذرًا، فلدي الكثير من المهمات، ويعلم الإله رع متى نتقابل مرة أخرى، انتظريني، فإن قامت الحرب فتوسلي للإله رع أن ننتصر.

يمد يده لها ليودعها، فتمدها إليه بخجل، ليشد على كفها قائلًا بحب:

- أريد شيئًا منك ليذكرني بك دائمًا، سأكون في مقدمة الجـــيش، وكلمـــا دنى الموت مني، أستبسل حتى أعود إليك.
- كيف ولا أملك أي شيء؟! (محدِّثة نفسها ولكن...)

تمزق قطعة من أكمامها البالية، وتلفها حول معصمه، قائلة بنبرة واثقة يغلفها الحب:

- ستعود منتصرًا.

لوّح لها بيده مودِّعًا، وما زالت الأخرى جامدة في مكانها، تراقبه بعينيها حتى اختفى عن ناظرها، تصرخ بداخلها:

- عد، أرجوك عد.

ينبض قلبها مرتعشًا، لتسقط دموع على وجنتيها بلا توقف.

* * *

فرعون يستطلع أخبار الجيش وأخبار العون، يحمس الجنود من ناحيـــة، ويقـــاوم الدسائس من ناحية أخرى، ويضرب بيد من حديد من يعارضه، فليس هـــذا الوقـــت للمعارضة.

كاي رع يستدعي وزيره ويشاوره متسائِلًا:

- أجاءك المدد؟

الوزير يركع أمام الملك يجر قدمه اليسري نتيجة إصابة قديمة في أحد الحروب، ثم نهض واعتدل قائلًا:

- قليلٌ يا سيدي من الخبز والعتاد يكفي لأسبوع فقـــط، والآخـــرون مـــوالين لكارلولي يا سيدي.

يعلن الحاجب عن وصول قائد الجيش فيدخل محييًا الملك:

- عشت أيها الملك العظيم والمحارب الجبار.

التفت إليه الفرعون متسائلًا:

- ما أخبار الجيش يا يكن؟

يكن بثقة واندفاع:

- إنهم على أهبة الاستعداد، الكلُ مستبسلٌ وراء مَلِكَه الجسور.

الفرعون يخالجه القلق، فهو على علم بكل شيء في المملكة، يعلم نقاط ضعفها، آملًا أن يستطيع إنقاذ بلاده، عاد ليسأله قائلًا:

- ما هي خطتك حتى نهلك قواهم؟ فإن ذهبنا إليهم، نذبحهم كما تُذبَح الخراف؟ أريد خطة عبقرية تكبده خسائر دون أن نتأثر قبل تقابل الجيشين.

يكن بعد تفكير مخطط له مسبقًا:

- سنهاجمهم خلف أسوارنا؛ لتقليل عدد الفقد في العتاد والجنود، وسنقتصد في الأقوات، فإن جاء الليل فاجأهم وأمطرناهم قتلًا وتنكيلًا، وسنربح المعركة يا سيدي.

الفرعون برجاء:

- فليباركنا الإله رع.

* * *

في وسط البلدة، يخرج هاتورلا مبارزًا أحد الجنود بالأيادي، والكل يراقب المشهد ما بين ساخرًا ومشجعًا، فهاتورلا القصير يناوش الجندي فيسقطه أرضًا، ثم يركله ويضحك، متراجعًا تعتليه الخيلاء، وصار في موكب كبير من الناس يتجمعون على هذا الشاب المراوغ السريع الحركة، متلاعبًا بكتفيه بما يشبه القرد.. هاتورلا يلهث ضاحكًا:

- انهض أيها الضعيف.

ويتمايل بحركة بهلوانية إلى اليسار، ويتداركه خصمه ينفث الهواء الساخن من رئتيه غاضبًا كثور في حلبة، يضحك هاتورلا، والجميع من حوله يضحكون، وما زالت الحشود تجتمع ويزداد عددها؛ لمشاهدة هذا القرد المتلاعب وهذا الثور الهائج، وأخيرًا يسقط الأخير فوق فخار متراص، ولا يقوى على النهوض بعدها، وهاتورلا يتراقص مازحًا بغرور:

- بدون تعب أسقطتك، وبلا ضربة واحدة.

أحد المتفرجين ساخرًا:

- إنَّه لقرد يشبه إنسان.

ومازال الكل يضحك، ونامسيا عزيزتنا تشاركهم الضحك، فيلاحظها هاتورلا و يتوقف الزمن كما توقفت عيناه، وبدون إرادة منه، يذهب إليها مفرقًا الجميع ويقول لها مداعبًا، يتساقط العرق من جبينه:

- إنه ثور كبير يعتقد أنني لقمة سائغة.

ما زالت تبتسم لتجيبه قائلة:

- هذا الرجل المسكين لو كان على علم مسبق بأنه سيبيت أضحوكة بين الجميع لما لاعبك، ولكان تجنبك أيتها الأفعى.

هاتورلا منصتا لها، متأملًا خصلات شعرها، مراقبًا حركات عينيها ووجهها جيدًا بنظرة إعجاب من تلك التقاسيم الصغيرة والوجه الناعم، ناظرًا إليها:

- أتريدنني أن أقص عليك أخبار البلاد والحروب؟ فإنّ لي في كل بلدة قصة من العجب والفكاهة ما لم يعرفها أحد، فأنا ابن الحروب، وُلدت بين الجنود، أعرف جميع من في البلاد، وأعرف حكاية كل فرد فيها، ما رأيك إذًا؟ أتقابليني مرة أخرى؟

نامسيا ضاحكة، متعجبة من شكله وطريقته الغريبة، لِمَ هذا الرجل يختلف عن كل من رأيت من الرجال؟ إنه ليس جميلًا أو مقاتلًا، ولكن أسلوبه رائعٌ وجميلٌ، ليس وقحًا، ولا أدري هل يعرف ذلك المجهول، لربما يطلعني عنه بأي خبر.

ردت بتحفظ:

- لا أكلم الغرباء، ولكن لي سؤال عندك، أتعرف جميع الجنود حقًا؟

رد بخيلاء:

- بالطبع، فأنا صديق الملك ولا يرفض لي طلبًا، وسآتي لك بخبره، أوالدك أم شقيقك؟ أم زوجك؟

ونطق بالكلمة الأخيرة وهو يدعو بداخله ألا تكون كذلك.

ردت وبداخلها أمل يشرق:

- إنّه لشخص أدين له بالمال، لا أعرف عنه أي شيء غير أنّه من الجنود الأقوياء الذين يستعين بهم الملك للفوز بالمعركة.

هاتورلا متردّدٌ يكذب إحساسه، أيعجبها هذا الجندي؟ وأنا أقول لها أنني صديق الملك، لا يهم، سأسايرها حتى يحدث الأمر وأفوز بها:

- إذًا ما اسمه؟

ردت متحيرة، وتضغط على شفتيها السفلية بحيرة:

- لا أعلم، ولكن يمكنني أن أصفه لك.

هاتورلا مطلقٌ ضحكة ساخرة:

- وكيف أبحث عنه؟

تنظر إليه باستنكار، وتفضِّل ألا تنتظر أكثر من ذلك، لتذهب فى طريقها، أمَّا هو فقد أحس أنه ضايقها، فذهب وراءها معترضًا طريقها، وهي تحاول أن تتملص منه، حتى أوقفها قائلًا:

- إن أردتِ، فسأبحث عنه.

وهنا وقفت ناظرة له بفرحة طفل صغير:

- أرجو ألا تكون مازحًا يا... أنا نامسيا، ما اسمك؟

رد مسرعًا :

- اسمى هاتورلا، وأنا لا أمزح معك، صدقيني .

هاتورلا يقف واثقًا من قدرته وعلاقاته، وهو أبعد ما يكون عن مساعدتها، إنَّما وجده طريقًا يمكنه الدخول منه إليها دون أن تنهره، وهي قد لاح فى نظرها بصيص من الأمل، لتتأكد قائلة:

- أتقسم ألا تمزح وتساعدني؟

هو مبتسمٌ في توتر:

- نعم، أقسم لك.

قالت بعد تنهيدة عميقة:

- إنه شاب ذو بأس، كلامه قليل، عيناه بنيتان، جميل المظهر، قوي الجسد، قليلًا ما أجده، كثير الغياب، لم أره من قبل سواء صغيرٌ أم كبيرٌ، وأرجّح أنه غريب عن بلادنا إنضم إلى الحرب.

يحك رأسه في حيرة، ليمط شفتيه قائلًا:

- مواصفاته متشابهة مع كثير من الناس، أيوجد شيء شخصي خاص به؟ مثلًا كتعويذة يحملها، أو نوع من الخواتم أو الأساور، أو أي ندب أو سوء بجسده؟

هي حائرة كثيرًا، متوترة، لا تعلم ماذا تفعل، ولكنها خطرت على بالها فجأة:

- إنه يربط حول معصمه قطعة من القماش، آملة ألا ينزعها.

هاتورلا بعدم اقتناع:

- إذًا سأبحث عنه في الجنود وآتيك بخبره، فأين أراك مجددًا؟

ردّت مبتسمة:

- دائما ما تجدني عند ضفاف النهر الجاف، أشكرك من كل قلبي هاتورلا.

ودّعها قائلًا:

- إذًا إلى لقاء قريب.

* * *

تقدم جيش كارلولي، ولم يفرقه سوى مسيرة يوم واحد عنهم، فكارلولي رجل سفاح لا يشتهي سوى الأموال والنهب، وله من الجنون ما يكفيه في ضرب الناس وتعذيبهم، فكانت له طرق عجيبة، لا أحد يدري أي شيطان لعين يقذفها إلى رأسه، قوانينه غريبة في معاقبة أي شخص لا يروقه أمره، ففي إحدى المرات اختار فلاحًا لم يعجبه شكله، ظنا منه أنه ابن شيطان، وطلب من جنوده ربطه في أحد الجذوع؛ ليتدرب على رأسه الرماية حتى قتل الفلاح، وكان عاقبة السارق عنده أن يُقطَع من أعضائه حيًا، وإن مات أتوا له بابنه وزوجته فيحرقهم أحياءً على أسياخ الشواء، ثم يتركهم للأسود، هكذا كانت شخصية كارلولي، كان فى الأصل جنديًا يستعين به المتآمرون والخونة على القتل والدمار، وقد كان له ثمنه الباهظ، حتى طمع في الحكم، ومهّد لنفسه كل السبل، فقتل الملك، ونصبه الخونة على بلادهم، فكان أول ما فعل أن تخلص منهم واحدًا تلو الأخر، كيف آمنوا لذلك المسخ؟! ظنّ أنهم لو تمردوا عليه فسيفضحون أفعاله، ويسهل سقوطه، ولكنهم هم من سقطوا إلى الهاوية، ليحفر لهم بئرًا عميقًا، ومن يعارضه يخطفه ويتركه هناك حتى يموت، وهكذا استمر حتى تخلص منهم للأبد، لا أحد يدري لِمَ اختفوا، وأين.

كارلولي يجلس في خيمته تجاوره النساء، ترقص البعض له، ويتجرع الخمر كأنه كلب لاهث، لينادي الحاجب آمرًا:

– اذهب فاحضر لي قائد الجيش.

الحاجب في خشوع:

- سمعًا وطاعة يامولاي.

يذهب الحاجب مسرعًا ليأتي بالقائد، ويعودان معًا، يستأذن القائد الدخول، ويدخل محييًا الملك:

- أوامرك أيها الملك.

كارلولي بحنق:

- هذه البلدة طالما صدت هجماتنا، وإن لم نأخذها الآن في ضعفها، ستأخذنا جميعًا ضمن ممتلكاتها، أريد تلك البلدة، أفهمت؟

يحاول كارلولي أن ينهض متكئًا علي إحدى جواريه، لا تحمله قدماه، متمايلًا في وقفته، ممسكًا بكأس الخمر بيده الأخرى. رد الآخر قائلًا بحماس:

- ستفعل يا مولاي، فلا يوجد من يعارضك، وقد قال جواسيسنا أن نفد ما لديهم من مؤن، ودب فيهم الضعف، ولن يقوون على مواجهتنا.

كارلولي متمايلٌ ضاحكٌ:

- إذًا فخذ هذا الكأس، ولترقص لنا الجواري، وغدًا نسحق بعض الرؤوس.

يصل جيش كارلولي إلى مسافة بعيدة من أسوار المدينة، ويصطف الفرسان، ويستعد الرماه على يسار الجيش، وفي الوسط الجنود الأقوياء الذين يحملون المدمر الكبير، هكذا كانوا يسمونه، ساق خشبية مقدمتها حديدية غليظة وثقيلة، يحملها عشرون رجلًا قويًا؛ ليهشموا بها باب البلدة التي يهاجمونها إذا اعتكفوا فيها بدلًا من أن يحاصروهم، وكارلولي يمتطي حصانه يجاوره قائد جيشه، وتركز في ميمنة الجيش

الدروع والمشاة، والجنود الآخرون يحملون السلالم الخشبية الثقيلة، وبالخلف تدق الطبول، وتضج ضجيجًا مع صيحات الجيش تهز القلوب، وكلهم ثقة بأنّ الطرف الآخر لن يقوى هذه المرة على المقاومة.

على الصعيد الآخر، يصطف الرماه على الأسوار، والسلالم الخشبية يعلوها الجنود المسلحون، والملك بالأسفل على حصانه مع قائد جيشه، وعلى يمينه هاتورلا، ومجموعة من الجنود تحضر الكرات النارية الحارقة لتنقض بها عند إشارة الحرب، وباقي الجنود ممن يقدر على حمل السلاح من العجائز والشباب، الكل بين الخوف والرجاء.

يترل الملك من على حصانه ليستقل على صخرة تعلو قليلًا عن الأرض مُخاطِبًا الجنود بحماس:

- أيها الجنود، أيها الاخوة، قد دقت ساعة الخطر، فإن كُتِبَ علينا القتال فلنستبسل في الدفاع عن مدينتنا، فنحن أحق بها من أي أحد، ولندافع عن أراضينا وممتلكاتنا، وعن أولادنا، وعن عزتنا وكرامتنا، ولنحارب من أجل الأرض التي سندفنهم فيها، وسنقهرهم،سنقهرهم.

تتعالى صيحات الجنود محدثين أصوات قوية تهز الأرض بأسلحتهم، متأثرين بحماسة الملك الذى استلّ سيفه، ويخترق الجنود حتى يصعد على السلالم، وليقف بجوار الرماة موجهًا سيفه تجاههم قائلًا:

- لنهزمهم.

ألهب قوله قلوب الجنود، "وكاي رع" ينظر إلى هؤلاء الجنود في الطرف الآخر، وقد ملأوا الأرض بأعدادهم، تراهم كما ترى حبات الرمال، ولكنه يقول لنفسه بإصرار:

- لن يتمكنوا من دخول بلدي إلا على أشلائي.

وهناك العجزة والنساء والرضع فى الملاجئ، يسمعون الضجات ويئنون، منهم من تبكي، ومنهم مبتهلات للإله رع ليحفظ أهلهم وينصرهم، ومنهم المرضى الذين يعانون، ويبكون من الألم والخوف، وهناك نامسيا التي تبكي ساعة، وتدعو وتبتهل ساعة، يرتجف جسدها، وتتلبد أحساسيها من الخوف مع دقات الطبول، ثم تعود لتفكر أنّها ربما لن ترى والدها ثانية، أستعيش أسيرة في بلادها؟ وما مصير ذاك الجندى المجهول الذى احتل قلبها؟ ثم تطمئن حينما تتخيله مغوارًا، يقف كالليث منتظرًا أعداءه، هكذا تتصارع نامسيا مع أحساسيها وخوفها وبكائها.

وفى أثناء الاستعداد للمعركة، يمسك جندينا المجهول قطعة القماش على يده ويقبلها قائلًا:

- انتظريني سأعود، فقط كوني بخير.

ثم ينتبه إلى دقات طبول الأعداء، قد أصبحت أقرب فأقرب فأقرب، والجنود مستبسلون في الدفاع، والملك يأمر الجنود بسكب الزيت المغلي على حاملي المدمر الكبير عند إشارته، واقفًا كالوحش لا يَهاب أحدًا، ينظر فى أعين الجنود ثابتًا.

هكذا ما يجب أن يكون عليه القائد، فإذا ارتجف له جفن خسر جنوده، ولابد أن يحكم عقله ويخفى مشاعره، فهو على وشك خسارة كل شيء أو ربح كل شيء، إنها لمقامرة صعبة نتائجها غير واضحة، جيش صغير يحتمي بالأسوار يقابله جيش جرار كامل العتاد والأسلحة والمؤن، إنّها لكارثة كبيرة، ولكن سنحاول.

تبدأ صفوف الأعداء فى ترتيب فرسانها، وعلى مسافة ليست بالبعيدة من الأسوار، بل فى مرمى سهامهم، وهنا يبدأ كارلولي الهجوم مُطلِقًا سهامه تجاه المدينة لتنفذ بعضها فى الجنود، ويحتمي الباقون خلف دروعهم، وفي أثناء ذلك يتجه حاملو المدمر الكبير إلى البوابة، حاملين على ظهورهم الدروع خوفًا من أسهم الأعداء، وهنا تقل أسهم كارولولي؛ ليتركوا المجال لحاملي السلالم بالتقدم، ويتقدم معهم دفعة كبيرة من الجنود، وها هي قد جاءت فرصة كاي رع ليمطرهم مطرًا وبيلًا، فأعطى الإشارة للجنود ليقذفوا الكرات النارية، آمرًا بعض الرماة بإطلاق الأسهم على حاملي المدمر الكبير، فلا تستطيع الأسهم اختراق الدروع، فيأمرهم بضرب أقدامهم، فى حين أنّ بعض الرماة الآخرين يقذفون ما في جعبتهم على جيش الأعداء.

وعند اقتراب السلالم من السور تراجعوا ليدخل الفرسان، وهاتورلا عند البوابة مع بعض الجنود مستعدين للهجوم إذا تقدم حاملو المدمر الكبير ليخترقوا البوابة، وقائد الجيش مع المقدمة، والملك فى وسط الجيش يحيط به الحرس الملكي مشجعًا الجنود، ولم يستطع حاملو المدمر الكبير التقدم أكثر، فتراجعوا وهم لا يقدرون على حمله، فأصبح عددهم قلة، وتساقط الجنود من السلالم، وتتلاقهم سيوف أهل البلدة وهم لا ينتهون ويتساقطون، والملك تخلى عن موقعه ليحارب معهم، وقد كان ذلك له أكبر الأثر فى نفوسهم، وبث القوة فى أجسادهم الضعيفة، فقاتلوا وقتل منهم عددًا كبيرًا، وظلت المعركة مستمرة حتى غابت الشمس في الأفق.

وهنا تراجع كلا الطرفين إلى مواقعهم، وقد أسدل الليل ستائره على ما تبقى من الجنود، فكانت الخسائر فادحة في جانب الطرفين، ولكن كانت أكثر فى جهة كارلولي.

* * *

فى خيمة كارلولي غاضب، تخرج النيران من أنفه، ويشتعل جسده لهيبًا صارخًا:

- ماذا؟ كيف شراذم الجنود تلك يكبدوننا كل هذه الخسائر؟ أقسم أنني على رأس الجيش غدًا، ولن أعود إلا ومفاتيحها فى يدي.

قائد جيشه متداركًا سرعة الملك:

- يا مولاي، لا أعلم من أين تلك القوة التي أستمدوها، فهم ضعفاء، فى الغد سنهزمهم بالتأكيد لقد تكبدوا خسائر عظيمة.

كارلولي حانقٌ في تذمر:

- كلا، لن أخسر جنديًا بعد الآن، ابعث إلى جواسيسك حالًا، أريد رؤيته.

انحنى القائد قائلًا في خشوع:

- سمعًا وطاعة يامولاي.

يخرج القائد من الخيمة تاركًا كارلولي يغلي من التفكير.

على الصعيد الآخر يجلس الملك مرهقًا، مستندًا بسيفه على الأرض، يتنفس بسرعة، ملطخة ملابسه بالدماء، ويتقدم له هاتورلا وقائد جيشه مُصابًا فى ذراعه، يتساقط منه الدماء، يركع بين يدي الملك ويتحامل على نفسه لئلا يسقط، وتخرج النساء يحملون المرضى ويسعفون الجرحى.

الفرعون يحاول التقاط أنفاسه:

- اذهب لمعالجة جراحك يا يكن.

ثم صوب رأسه تجاه هاتورلا قائلًا:

- قم بعمل حراسة ليلية، ستكون أنت مسئولًا عنها، وقدر لي حجم الخسائر وعدد الجنود المتبقين، والأسلحة والمؤن، وسأنتظرك في خيمتي.

يحاول النهوض فيسنده هاتورلا، لتقع عينه فجأة على قطعة القماش حول معصم الملك فارتبك، ولكنه حاول ألا يسأل، فقد زاده فضوله كيف تلك قطعة القماش البالية الرخيصة علي يد "كاي رع"! أيمكن أن يكون.....؟ لا لا مستحيل.

دلف الملك إلى خيمته ليضمد جراحه، وليستعد لرسم الخطة الجديدة، وكيف يحمي بلدته بهذا العدد الصغير، كل هذا وهاتورلا لا يصدق ما رأه، أيمكن أن يكون الملك .....؟ لماذا هي؟ فقد أحببتها..

نحى أفكاره المتخبطة جانبًا؛ ليتجه متحققًا من طلبات الملك، فأعطى أوامره لبعض الجنود الذين اختارهم بعناية لمساعدته، ثم ذهب ليبحث عن نامسيا.

تتفقد الجنود، تبحث عن والدها وعن حبيبها متلهفة، تعتصر أحساسيها، وتنظر في الجميع، تمنت لو كان لها سبعة أعين لتبحث عنهما، شعرت بضيق نفسها، والدنيا فى عينيها قد ازداد سوادها، وما وجدت والدها سوى قتيلٍ غريقٍ في بحر من الدماء، تحركت نحوه بقلب مرتجف أوشك على الفناء، ربما بصرها قد خدعها، وما زالت تجر قدميها نحوه في وهن؛ لتتأكد أنّه هو والدها. ارتمت عليه تصرخ وتبكي حسرة وألًما، لقد فقدت مأمنها وسندها، فماذا تفعل وهي الآن فى شدة ضعفها؟

لمحها هاتورلا تبكي بحرقة آلمت قلبه، واعتصرته دموعها عصرًا، تمنى أن يفعل أي شيء حتى لا يرى تلك الدموع، ليتجه نحوها مسرعًا يحتضنها وهى ما زالت تصرخ

لتزداد دموعها وتبعد يديه بيد مرتجفة، فجثا على ركبتيه يضمها بكلتا يديه، وما زالت مستمرة في نحيبها تبكي أكثر حتى أغمي عليها، فحملها وذهب بها إلى أحـــد النســـوة لتعتني بها قائلًا لها:

- سأعود بعد قليل.

ثم اتجه إلى مساعديه؛ ليتفقد أخبارهم ومن ثم يذهب إلى خيمة الملك.

فى خيمة كارلولي يتحرك ظلًا ملثمًا يمشي ببطء وحذر، يظهر على رجله أثر العرج محييًا الملك:

- سمعًا وطاعة يامولاي، عبدك الضعيف بين يديك، فاطلب ما شئت.

ينظر إليه كارلولي بنشوة النصر مغرورًا بنفسه:

- ألم تقل لي أنّ الاستيلاء على البلاد وهي في أضعف حالتها هو أفضل طريقة يا إخمانون.

إخمانون موضحًا:

- إن المؤن قليلة، ولن يستمروا لأسبوع، فإن انتظرت قليلًا ياسيدي سيسلمون لك المدينه طوعًا.

كارلولي بعصبية مفرطة:

- إذًا أتطلب منى الحصار لأسبوع؟! فأنا لا أطيق الانتظار، بل سأدخلها وغدًا، فقط أريد مساعدتك فى إبعاد الجنود عن باب المدينة.

إخمانون بتوتر:

– سأُقتل بلا ريب، ولن يتحرك جندي من جوار البوابة.

رد متسائلًا:

– وماذا تقترح إذًا؟

إخمانون بثقة:

– يا سيدي، إن أردت أن تدخلها غدًا فى انشغال الجميع، سآمر بعض الجنـــود بفتح الأبواب، ولكن لا تنسَ مكافأتي.

كارلولي ضاحكًا :

– اتفقنا إذًا ، فلتنتظرني غدًا.

كارلولي متعجبًا:

– ألن تقول لي كيف تخرج دون أن يلاحظك أحد؟

يضحك الوزير قائلًا:

– إنها بلادي، أعرفها كما أعرف يدي، فلي بعض من المناصرين الذين يسهلون خروجي ودخولي، فلا تقلق أيها الملك.

يتلثم الوزير مرة أخرى، ويمشى خارج الخيمة، وكارلولي يراقبه بنظرة غريبة كالثعلـــب المرابض لفريسته شامتًا في كاي رع.

* * *

اجتمع هاتورلا بالملك، واتفقوا على أن يتولى هاتورلا قيادة الجنود عند البوابة ويحميها بحياته، ثم خرج الملك يتفحص تجهيزات الجنود، ويتابع الحراسة الليلية بنفسه، مما كان له أثره فى نفوس الجنود ليملأ قلوبهم حبًا وتقديرا له، وهاتورلا المسكين يختنق لا يستطيع التنفس، فاقدًا روحه المرحة، متجهًا إلى نامسيا ليواسيها فى مصيبتها، وهي مغمضة عينيها في أسى، ودموعها لا تتوقف، يجلس بجانبها يمسح بيده على شعرها قائلًا:

– فقط اهدأي، سيسير كل شيء على ما يرام، أنا بجانبكِ الآن.

لا تقوى على الرد، ولا تنوي الحركة، فقط تتمنى الموت كأبيها، فلماذا تعذبها الحياة؟

انصرف ليتركها تهدأ، ولكي يشرف بنفسه على الأبواب والتجهيزات، ولكن عقله تائه، وقلبه مشتعل لا يهدأ، وكيف يهدأ بعد أن عرف الحقيقة، وكيف يقولها؟ فليس من شخصية "كاي رع" ملاطفة الفتيات، لم يره يومًا معجبًا بإحداهن، وليس من الممكن أن يلهو معها، وهي متعلقة به جدًا، أيقسو على قلبه وحبه ويتركها له من أجل الصداقة؟

غفا البعض قليلًا وتناوبوا الحراسة الليلية خوفًا من الخطر، ومع بزوغ الفجر نهض الجميع لكي يستعدوا للقتال، وتحامل على نفسه من استطاع وبه الكثير من الجروح؛ ليساند هذا الملك الجسور الذي يقف مستلًا سيفه بين الجنود، والكل يرتقب النصر، فقد تكبدوا الكثير والكثير وتلك ستكون نهايتهم.

الكل ينظر إلى الملك مقتديًا به، والملك يشعر بالفخر من نفسه، يتمنى لو يرى محبوبته مرة أخرى قبل أن يقدم على الحرب، لا يعرف حتى اسمها، وليته يعلم كيف

حالها الآن، ليتها تكون بخير، يتنهد تنهيدة طويلة ويرفع قماشتها إلى فمه يستنشقها ويقبلها متمنيًا أن يراها ثانية، فقد اشتاق لها كثيرًا.

ونامسيا على حالها باكية على والدها، لا تفكر فى أي شيء، فاقدة الوعي وهي مستيقظة، ظلت على تلك الحالة، حتى سمعت صوت قرع الطبول، ومعها زاد نحيب النساء والأطفال، والجنود المصابون يتوسلون للإله رع أن يحفظهم.

اصطف الجيشان أمام وخلف الأسوار مرة أخرى، وكارلولي على يقين هذه المرة بأنّه سيفوز، والملك يحمس الجنود ويبث فيهم العزيمة، ينتقل بينهم مشجعًا، حتى تعالت صيحات الجيش بقوة تعجب لها الجيش الآخر، الكل قلق مرجحٌ الهزيمة، وبالرغم من ذلك لا يهابون الموت، ولا يريدون تسليم المدينة، أي قوم هؤلاء؟ أقوم مجانين لايعقلون شيئًا؟ أم أنّها عزيمة زائفة كقوتهم تمامًا؟

الكل فى مكانه مستعد في حذر، وبدأت الحرب، ليتساقط الجنود كحبات اللؤلؤ المفقود، تاركًا وراءه زوجة محبة، أو أم وحيدة، أو أطفال صغار، وفى جمرة المعركة، تحرك إخمانون وأعوانه مستغلًا انشغال هاتورلا بمساعدة الملك في القتال، ليعاونه أتباعه فى فتح البوابة، فانتبه لذلك هاتورلا ليقفز مسرعًا يتدارك البوابة، حتى قابله الجنود يتدفقون كالسيل، وإخمانون ممهدٌ لهم الطريق، فانسل سيفه وصاح صيحة قوية غاضبة ارتجف لها جسده، وهوى على رأس الوزير مُحاوِلًا الحركة سريعًا عرجًا يحاول الفرار، ولكنه سقط أرضًا متوسلًا، ولكن هاتورلا لم يسامحه، فقطع رأسه.

وثبت هاتورلا مع قلة من الجنود يتبارزون مع الأعداء، حتى اخترق الأعداء صفوفهم، ودبّ الذعر في نفوسهم يترنحون فيما بينهم، منهم من يحاول الهروب

فيحصدونه حصدًا، والملك فزعٌ قلقٌ، تاركٌ مكانه لقائد جيشه مستلًا سيفه؛ ليكون في قلب المعركة يحاوطه بعض جنوده.

تسللت الأنباء إلى مخبأ النساء، فبلغوا من الهلع مبلغه، وازداد الصراخ والعويل، ونامسيا تتساءل في نفسها، هل سأخسره كما خسرت أبي؟ لتنتفض من مكانها قائلة بنبرة لا تناسب جسدها الهزيل:

- كلا، فإن مات لأموتن معه، وإن عشت لن أحيا بدونه، وسأموت كل لحظة.

صرخت فيهن حتى يهدأن، ثم أردفت قائلة:

- ماذا يزيد الرجال عنا حتى ندافع عن أنفسنا وعن بلادنا؟ أترضون العيش أسرى مذلولات في بلادنا؟ أم نموت فداءً كما مات رجالنا وآبائنا وإخواننا؟ ورب الأرض لن أعيش فى ذل، يا معشر النسوة، فلنحمِ ظهور رجالنا، ولنمُتْ معهم على أرض المعركة نحارب جنبًا إلي جنب.

تعالت الصيحات والهتافات، وازدادت النساء إصرارًا، وكفكفن دموعهن، وحملن ما ثقل وزنه، واستطعن حمله من حجارة وسكاكين.

خرجت نامسيا مع النسوة يصرخن صرخة الأسود، يقذفن ما في أيديهن على رؤوس الأعداء، يجتمعن حول الجندي يضربونه، حتى إذا فارق الحياة اغتنمن سيفه ودرعه وتزداد فيهن الحماسة، واشتعلت الحمية فى نفوس الرجال فتكاتفوا مستبسلين يدافعون عن بلادهم في مشهد لا يتكرر ولن يتكرر، يخرج الرجال مصطفين حامين بلادهم ساترين نسائهم تغلي الدماء في قلوبهم، ونامسيا مستبسلة تتقدم النساء، حتى وصلوا إلى ساحة المعركة، وما إن رأى الرجال السيدات تجمعت صفوفهم والتفوا حول

ملكهم يدافعون مستبسلين، ونامسيا استعلت صخرة، وقف من قبل عليها "كاي رع" مخاطبة الجنود بصوت تقسم إن سمعته أنه لن يخرج من أنثى أبدًا:

- إما الموت أو النصر.

لمحها هاتورلا فأعجبته شجاعتها، واتجه إليها كي يحميها خوفًا عليها من السيوف، متخطيًا الصفوف حتى وصل إليها، ينظر إليها مكتسبًا الثقة من عينيها، وفجأة أحتضنها.

تملصت منه نامسيا نافرة، ولكن ما زاده تملصها إلا التصاقًا بها، ثم تركها يضرب بسيفه من حوله ومن أمامها، ولكن هي لم يشغلها ما فعله هاتورلا، وما زالت تبحث عن جنديها، توقن أنه إن رآها فسيهرع إليها، تحاول كثيرًا أن تصعد الصخرة مرة أخرى، وهاتورلا خائف من سيف أو سهم موجه إليها فينهرها لتنزل.

صمد الجميع أمام جيش لا قبل لهم به، لا أحد يعلم ما تلك القوة التي تسري في أيديهم وأرجلهم لتجعلهم متماسكين كمن ربطوا بالأرض.

انتصف النهار ولاح لكارلولي بغتة جيش يحاوطه من الخلف، يناوشه ويحصد فيهم من الخلف حصدًا، وارتبكت الصفوف وبدأ الهلع يسيطر على الجنود، فقد أصبحوا بين فكي الرحي يحصدهم الموت بلا رحمة، وتكسر هجوم الأعداء بداخل أسوارهم حتى برز "كاي رع" من خلف أسوار المدينة، وأسر حصان أحد جنود أعدائه مبارزًا بسيفه محركًا به في الهواء بحركات قوية، قاذفًا رؤوس الأعداء من كل اتجاه، وتبعه حراسه ومن تبقى من الجنود كمبيد يحصد جيش من الصراصير في طريقه، تجلت آيات البطولة والإقدام من كل الجنود، حتى أفسحوا المجال بين كارلولي وكاي رع يتبارزون فى موقف

لن تراه حتى في الأحلام، فكارلولي قويٌ مبارزٌ شرسٌ، وكاي رع مبارزٌ جسورٌ لا يقل عنه قوة، وتمكن كاي رع على حين غرة لعبها معه الحظ، وغرس السيف في صدره فأسقطه أرضًا.

وتهلهل وجهه وتنفس نفسًا عميقًا، كمن نسي من قبل ذلك أن التنفس جزءٌ من الحياة، تعالت صيحات الجنود بالنصر، وكاي رع يسقط مغشيًا عليه من كثرة ما نزف من الدماء، فاتجه إليه هاتورلا يحمله، والجنود متجهون به إلى القصر، معهم الملك "كاسياسي" ملك مملكة الشمال، قد وافق أخيرًا على معاونته، ولكن ما أثار اهتمامه هو صمدوهم أمام جيش أضعاف حجمهم وأقوى منهم، وهم يعانون الفقر والجوع، وقد قرر أن يأتي في نهاية المعركة فجأة حتى يطبق على جيش كارلولي من الخلف، الأمر ليس محبة ولكن هم في طريق كارلولي بعد ذلك لو تمكن من النصر، فأحب أن يجعل الطُعم شخصًا أخر.

أما باقي جنود الجيشين يطاردون ما تبقى من جيش كارلولي، وعزيزتنا نامسيا تبحث في لهفة عن محبوبها، تكتم أنفاسها من روائح الدماء والمناظر التي تراها عسى أن يكون حيًا أو مصابًا، لا أن يكون ميتًا، بحثت كثيرًا كثيرًا ولم تجده، لذا قررت التوجه إلي هاتورلا لتسأله، فهو أعلم حالا بالجنود، ولكن كيف تذهب إليه بعدما فعل؟ و لكنها ضغطت على نفسها قائلة:

- سأوضح له أنني ملك لرجل آخر.

* * *

في قصر الملك يرقد كاي رع وحوله المنجمون والأطباء وهاتورلا، الكل مبتهل يدعو له بالشفاء.

مرت الأيام على كاي رع، وبدأ يمتثل للشفاء، ونامسيا تراودها الكوابيس، كلما أغمض لها جفن، فأصبح من يراها يظن أنها شبحٌ من كثرة الهالات السوداء تحت عينيها، تبحث عن هاتورلا ولا تجده، فكاي رع يمتثل للشفاء وهاتورلا بجواره لا يفارقه.

بعد مضي شهرين أصبح كاي رع يستطيع النهوض، وأول ما فعله هو أنه اتجه إلى ضفاف النهر ينتظر نامسيا قابضًا على لفافة معصمة بقوة، ينظر إليها مقبلًا لها، يتمنى أن تكون بخير.

ظل ينتظرها كثيرًا وهو لا يقوى على الوقوف، ولكنه ما زال منتظرًا حتى الغروب، إلي أن يأس من الانتظار، فقرر البحث عنها، ولكنه لا يعرف اسمها، لذا سيتجه إلى بيتها مباشرة.

نامسيا لا تقوى على الحركة، هزيلة الجسم، باكية، وحيدة، تزورها بعض النسوة الكبار من حين لآخر ليطعمنها، والكل على يقين بأنها ميتة لا محالة، ورغم ذلك يزورونها ويطعمونها، فهي من كانت سبب النصر، ولكنها لا تتقبل طعامًا.

يطرق أحدهم الباب ويستأذن بالدخول، وما إن دخل ولمح وردته ذابلة حتى انحنى عليها متجاهلًا الضمادات والألم، ليحتضنها بين أضلعه وتتساقط الدموع من عينيه قائلا بصوت متحشرج:

– أنا هنا حبيبتي، أنا هنا قرة عيني، أنا هنا.

يحرك رأسها وهي تئن بضعف مغمضة العين متسائلة بتشكك:

- هل أحلم؟! أترى الموت قد حنّ أخيرًا عليّ حتى يجمعني بمن أحب؟ أما آن لتلك الأوهام أن تكف؟

ويزداد بكاؤها وهو مستمع إليها يتقطع قلبه وتتحسر نفسه عليها، رد بصوت مخنوق تتساقط دموعه:

- افتحي عينيكِ حبيبتي، أنا هنا. (مقبّلًا رأسها).

نامسيا تفتح عينيها بضعف تنظر إلى محدثها، حتى... نامسيا تتقوى على نفسها تنظر إليه من خلف دموعها، لترتمي في حضنه، ويعلو نحيبها وأنفاسها المضطربة بداخلها، تمنت لو تصير أحد أضلعه فلا يفترقان ثانية، وهو يحضنها باكيًا، أرأيت كل هذه القوة وكل هذا العناد يحتضنان بعضهما؟ كل القلوب القوية المشجعة القائدة وهي ضعيفة؟ كلا لم ترَ، فمتي حدث ذلك فاعلم بأن حبهما قد تخطى كل حب العالم، بل الحب في كل الأكوان، ملك يبكي كطفل رضيع، وبطلة تتنفس أنفاسه كمن يحيا لأول مرة، حبهما لن يستطيع أحد تخيله أو وصفه بالحروف، فهنا ستجد الحب كله متجسدًا بجسدين وروحين وقلبين صارا واحدًا، أخذهم اللهفة والاشتياق إلى وجع كل الأيام الماضية، حلم لا يريدون الاستيقاظ منه، مستسلمون لأشواقهم، ليسوا كما عاهدناهم أقوياء، إنها للحظة حنان، لحظة اجتماع القلوب والأعمار، لحظة المستحيل يصير فيها ممكنًا، لحظة تطير فيها القلوب بلا أجنحة، لقد وجدا بعضهما بعد هذا البعد الطويل، تمنى أن تنزع أرواحهما بدلًا من أن ينتزعا من بعضهما، وظلا على حالتهما تلك فترة طويلة لا يدرون كم مر من الوقت، ولا يهم، ولكن من ينسى ضحكة نامسيا التي اهتز لها قلبه الجسور؟ ومن هي لتنسى من حماها؟ من ارتجف قلبها له وإن تقرب من جمالها الكل، لكن هو الوحيد من تقرب لقلبها، حتى وإن قالت من قبل أنه لا يعنيها وجوده، هو الوحيد من أحبته، فليذهب البُعد إذًا إلى الجحيم، عفوًا إنه الحب ياسادة.

كاي رع بصوت خافت لايتناسب مع شخصيته:

– ما اسمك؟

نامسيا بصوت ضعيف:

– نامسيا، وأنت؟

يتمعن كاي رع في اسمها كأنه النغم قائلًا:

– اسمي خادم حبيبتي، الجندي المتواضع كاي.

يترك نامسيا ليمسك ذراعها ويسند ظهرها على كتفه المصابة، ولا يشعر بألمهـا، وهي مستسلمة خاضعة متعجبة من نفسها، وإذا به يطعمها كمثل عصفور صغير وجد أمه وهو بحنان العالم يحنو عليها، وبعد أن انتهت رجعت مرة أخرى واحتضنته لتنام على ذراعه، وهو مقبلٌ رأسها يداعب خصلات شعرها قائلًا:

– سأظل معك ولن يفرقنا أحد، حتى الموت لن أسمح له، هـذا وعـدي لـك حبيبتي.

وانقضى الليل كلهليناما مستقرين القلب، هادئين النفس، ليبزغ الفجر فتسـتيقظ نابضة بالحياة، تتأمله في هدوء، أما هو فيستيقظ على لمسات يدها لجبينه، ممسكًا بكفها، مقبلًا له مبتسمًا:

– نهارٌ سعيد سيدتي.

هي بعيون لامعة تفيض حبًا:

– نهارٌ سعيدٌ حبيبي.

يتكأ على الأرض ليستند بها ليقف، وهي ارتجفت قائلة:

– أستتركني ثانية؟

هو نافيٌ:

- كلا، ولكن لي أمور يجب عليَّ القيام بها، وسآتي لكِ، ولا تجزعي، فأنا دائمًا بجوارك عزيزتي.

وخلع خاتمًا فضيًا نقش عليه اسمه من يده، وألبسها إياه وهي تنظر إليه كالمسحورة:

- أتقبلينني زوجك؟

هي بفرح الدنيا كله:

- نعم نعم.

رد بفرحة عارمة:

- إذًا لن أغيب عنكِ المرة القادمة.

يضمان بعضهما، مقبلًا يدها، يودعان بعضهما بحب، وهي تتراقص من السعادة بداخلها تضم خاتمه بين أصابعها مقبلة.

* * *

الكل يبحث عن الملك فهو مختفٍ منذ يوم كامل، والكل خائف مرتجف، ماذا لو حل به مكروهًا؟ وإذا هم على حالهم، يدخل الملك من إحدى أبواب القلعة السرية، متجهًا إلى قاعة قصره، الجميع اصطف فى القلعة يحيي الملك مصفقًا له، وبعد أن ذهب الجميع، اتجه له قائد جيشه محييًا ومباركًا وداعيًا للملك بالعمر الطويل قائلًا:

- إنها لمباركة الإله رع لنا أن شفاك للبلاد أيها الملك العظيم، جميع من في البلاد يدعو لك بالعمر الطويل والعز الكثير.

الملك بابتسامة:

- أشكرك يا يكن.

ينظر الملك إلى هاتورلا قائلًا بثقة:

- أيها الصديق الوفي، إنك نعم الأخ والسند، كافأني الإلـــه بـــك في معـــركتي فانقلبت نصرًا.

هاتورلا يتصنع البسمة:

- ليس لي الفضل وحدي ياسيدي، إنما الفضل للجميع، وكذلك الفضل لتلـــك المرأة القوية، التي بسببها توحدت جنودنا، وانقلبت موازين المعركـــة، إنهـــا لأحق مني بالثناء.

كاي رع ممتنًا لصدقه:

- ألم أقل لك إنّك نعم الأخ، إذًا فلتدعوها في القصر كي أشكرها و أكافئهـــا بنفسي.

هاتورلا بتردد:

- سمعًا وطاعة يامولاي.

ينادي الحاجب بوصول الملك كاسياسي إلى القاعة، ويأذن له الملك بالدخول.

الملك كاسياسي اتجه إلى الملك كاي رع، واحتضنا بعضهما وبادره مبتسمًا محييًـــا لـــه قائلًا:

- أيها الملك الجسور شكرًا لك، ودائمًا بلادنا مدينة لبلادك، وأهلًا بك في بلدك الثاني .

كاسياسي ضاحكٌ:

– أفضل شيء أننا تخلصنا من كارلولي، ذلك السفاح اللزق.

كاي رع بغرور:

– فالليلة نحتفل بالملك الجسور كاسياسي، وليقوِّي ذلك أوصال صداقتنا القوية.

كاسياسي بنظرة متحدية:

– إذًا فليأذن لي الملك بطلب.

كاي رع مبتسم:

– لك ماتطلب أيها الملك.

كاسياسي بنصر:

– أريد أن أطلب منك أن نقوِّي صداقتنا تلك بالنسب، فلدي بنت جميلة (أوتارا) أريد تزويجها، ولن أجد من هو أفضل منك لابنتي.

توجم الكل وانصعق كاي رع، وهاتورلا يبتسم، ولكنه يخفي البسمة سريعًا محاولًا الاقتضاب، كاي رع يستعيد توازنه ردًا:

– وأنا لن أجد أفضل منها زوجة، ولكن أيها الملك بلادي الآن تحتاجني أكثر من أي زواج مقدس.

كاسياسي رد:

– فلنجعلها خطبة إذًا، ومن ثم يأتي الزواج حين يحين الوقت .

كاي رع امتعض واغتم، ودار عقله محاولًا التماسك وما أراد سوى قتله ليكشف، فلست الآن إلا ملك لنامسيا وحدها، لا أي أحد آخر، ولكن كيف يرفض طلبه وهو لايعرف كيف ستكون ردة فعله؟ ثم تنفس ببطئ قائلًا:

- إذًا اترك لي مساحة من الوقت، وسأرد قريبًا. (يتصنع البسمة)..

بعد أن خرج الملك كاسياسي، ارتمى كاي رع على الكرسي طالبًا من الكل الخروج، ويبقى معه هاتورلا فقط، يضع يده على جبهته مفكرًا واجمًا:

- هاتورلا لا أستطيع.

هاتورلا متصنع عدم الفهم:

- لِمَ ياسيدي؟

كاي رع بحدة:

- كيف يطلب هذا الحقير أن أبيع نفسي له وأنا قلبي ملك لشخص أخر؟

ينظر لهاتورلا مكملًا:

- إنني أحبها حبًا يقود للجنون، لقد وعدتها بالزواج، كيف كاي رع يتخلى عن قلبه؟

هاتورلا مقاطع:

- لأجل بلاده، أيها الملك إني أتفهمك، لقد أحببت أنا كذلك وأهيم بحبها وأفديها بنفسي، ولكن ما يضر إن الخطبة تمت حتى تنهض البلاد، ثم نفسخ الخطبة وكأنها لم تكن؟

كاي رع نافي:

- ليس من شيمتي أن أتخلف عن وعدي ياهاتورلا، ولست من يلقي الوفاء ويبادل المعروف بالخيانة.

هاتورلا غير مبالٍ:

- إذًا اطلب من الفتاه المحظوظة أن تصير زوجة ثانية والكل راضٍ.

كاي رع يرد بغضب:

- أتريدني أن أقتلها وبيدي؟ فأنا لها هي فقط، هل تعلم كيف كانت حينما كنت بعيدًا عنها؟

هاتورلا مردد:

- من هي ياسيدي حتى أكلمها وأوضح لها كل شيء؟ يا سيدي نحن في ضعف، ويجب علينا بعد كل هذا النهوض ببلادنا حتى لا نكون لقمة سائغة لأي بلد، يا سيدي أنت أكبر من أن أذكرك بحاجتنا الآن للمعونة، فلا ترفض الخطبة أرجوك وأتممها واخفيها عن محبوبتك، فإن حاجة بلادك الآن تطغى على حب فرد لفرد، إنما يجب أن يكون الآن حب الفرعون لبلاده.

كاي رع ينصت له بكل جوارحه وتتساقط دمعه ليخفيها قائلًا:

- أريد أن أراها.

هاتورلا يقف لامحًا أملًا من بعيد، فالآن من الممكن أن يفوز بها، والآن لن ترفضه أبدًا.

كاي رع يخرج من إحدى الأبواب السرية؛ ليذهب إلى نامسيا ليجدها تلمس الخاتم تقبله وتحنو عليه، كم هي رقيقة مشاعرها، أكاد أغرق في جمالها، أكاد أموت لها شوقًا

غير أنني رأيتها منذ فترة قصيرة من الوقت، لِمَ هذا الألم؟ ما تلك الغصة التي تشعرني بالخيانة؟ كيف أخونك؟ وكيف أرمي ببلادي في عز احتياجها؟

يحاول أن يتماسك متحدثًا لها:

- نامسيا.

فتنظر إليه نظرة رجف لها قلبه وزاده ألمًا، فلم يتماسك وضمها إليه، وتتساقط دموعه قائلًا:

- أتحبينني؟

أومأت برأسها بأن نعم... رد بصوت مخنوق:

- لا تظني فيّ أبدًا الخيانة، إنني أحبك، قسمًا بالإله رع أحبك، إن طلبت منك أن تنتظريني مده طويلة قليلًا حتى أنفذ وعدي لكِ، ما قولك؟

تركت أذرعه مستندًا عليها:

- سأنتظرك طوال العمر، فأنت لي الآن، لن أظن بك سوءًا أبدًا، إنني أستقوي بك على أيامي ، أنت عوضي أيها الحبيب.

مقبلٌ رأسها وتركها مودعًا إياها والألم يعتصر قلبه، حينما ترك الباب رجع مرة أخرى ليحتضنها بقوة تكاد أضلعها تتكسر ولا تقوى على التنفس، ثم تركها، وهي مازالت تنظر إليه حتى اختفى بعيدًا عن ناظريها بثيابه البالية الملثمة، لا تدري لِمَ يلبسها، ولكن لا يهمها ذلك، فهو معها ولا يهمها أحد.

يدخل الملك إلى القلعة مرة أخرى ليصل إلى حجرته، لم ينم في ليلته أبدًا، وظل يفكر ويفكر حتى أشرقت الشمس، فذهب إلى القاعة طالبًا من الملك كاسياسي

مرافقته، وأخبره بموافقته على الخطبة والحزن يعتصره، ولكن ما يصبره أنه لن يدوم ذلك الحال طويلًا، ففرح كاسياسي كثيرًا، وطلب من كاي رع إقامة الزينة وليخبر المنادي جميع من في البلاد.

بعد يومين أقيمت الزينة، وكل من في البلاد مهنئٌ مبارِكٌ للملك، والملك نفسه حزين مكتئب، وبجواره هاتورلا مواسيٌ له، ونامسيا مازالت فرحة، منتظرة حبيبها الغائب وإن ظل سنوات واثقة فيه كل الثقة، وإلى أن جاء اليوم الميمون حتى أقيم حفل الخطبة، طلب منه هاتورلا أن يصطحب تلك المقاتلة وليكافئها في ذلك اليوم أمام الجميع، وقد وافق الملك.

هاتورلا يسأل عن نامسيا، ويذهب إليها ليجدها في حاله من البهجة، تلمع عيناها وتورد وجهها وقد لبست فستانًا أحمر فضفاضًا بسيطًا، ليجعلها كقطعة من الجمر في نظر من يراها، جعلت قلوب جميع من في السوق ملتهبة مشرأبة تجاهها، فاتجه نحوها قائلًا:

- لِمَ العجلة؟

نظرت خلفها مسرعة، وما إن رأته حتى تبسمت قائلة:

- أين كنت أيها القرد؟ لقد بحثتُ عنك كثيرًا.

رد مازحًا :

- ها أنا ذا، ماذا تريدين سيدتي الجميلة مني؟

ردت بخفة:

- لا أريدك الآن، فقط اذهب.

رد متعجبًا من طلاقتها:

- إذًا سأذهب، ولكن الملك يدعوك اليوم على حفل خطوبته الميمونة، يريد مكافأتك، سأعود لكِ في المساء لأصطحبك.

هزت رأسها غير مبالية، ولكنّها لا تجرؤ على الرفض، ردت:

- ألا يوجد غيرك؟

هاتورلا ضاحكًا:

- أنا فقط، وسأظل أنا إلى آخر العمر يا نامسيا.

ضحكت نامسيا، وتركته ينظر إليها حتى اختفت تمامًا، وعادت إلى بيتها، وما إن أتى المساء اصطحب هاتورلا نامسيا الجميلة، فكانت مرتدية فستانًا أهداه لها إحدى النسوة حينما علموا بذهابها إلى حفل الملك، وقد ضبطوا أكمامه وطوله لها فأصبح عليها كالماسة في بريقها، ينسدل شعرها على كتفيها في منظر بديع.

هاتورلا مرتديٌ زيًا أسود، أكمامه بيضاء، ويضع عطرًا طيبًا، اصطحبها إلى القاعة وانتبه الجميع إليها عندما دخلت تمشي بغرور وببطء، جعلت الجميع ينظرون إليها بشغف وتساؤل:

- من تلك الجميلة؟

الملك وأوتارا يجلسون على كرسي الملك في أبهى حُلة، فالملك يلبس رداءً أبيضَ حريريًا منقوشًا بماء الذهب، وعلى رأسه تاج الملك، وأوتارا تجلس بجواره مرتدية فستانًا بلون السماء، مرصعًا بالماس، جميلة جدًا، فهي ذات شعر طويل أشقر، منسدلٌ كثيفٌ، وبيضاء الوجه، زرقاء العينين، نالت إعجاب الجميع برقتها وجمالها، ولكن كاي رع لا يراها أبدًا.

ما إن وصل هاتورلا إلى كرسي الملك محييًا له، وما إن تلاقت أعينهما حتى انصعق الملك وتوتر، وبدا واضحًا عليه أنّه تعرف عليها، أما هي فقد عرفته، ولكن كذّبت عينيها، وتركت هاتورلا وذهبت إليه مترنحة، كمن أصابها سهم قائله بصوت مخنوق:

– كاي؟ أهذا أنت؟

ثم تاهت عن الدنيا وتلقفتها الأرض، فهي أحن عليها من هذا النذل الذي خانها وقتلها في عز فرحتها.

خرج الملك عن طوره، وسقطت أقدامه وأذرعه يحملها، تاركًا الحفل وأوتارا، تاركًا كل شيء، ضرب الرياح يحملها ولا تقوى قدماه على المشي، فيجرها كما يجرها الكسيح، ووضعها على سريره في القصر صارخًا في وجه هاتورلا الذي يتصنع عدم الفهم:

– طبيبًا، أريد طبيبًا.

القاعة والحضور في ذهول، والكل لا يعرف ماذا يحدث، ماذا أصاب الجميع؟ هاتورلا يذهب مسرعًا يتخبط في الناس، يريد أن يصل إلى الطبيب مسرعًا، وبعد أن استعادت وعيها – وكانت تريد ألا تفيق أبدًا– تنهمر دموعها، وهي صامتة تنظر في الفراغ، حاول الملك أن يمد يده نحوها، ولكنّها رفضت ونهضت، تاركة له المكان تريد المغادرة، حاول أن يلحق بها لكن هاتورلا استوقفه قائلًا بحزم:

– اتركها لي الآن، واذهب لضيوفك وسأطمنك عليها، لا تقلق فهي في يد أمينة الآن.

الملك تمنى لو أصابه ألف رمح على أن يتسبب بجرحها بتلك الصورة، ظل صامتًا ليرجع إلى القاعة، إلى الجحيم، تاركًا قلبه يجري يلحق بها يواسيها، لا يعلم ماذا يفعل.

نامسيا تتخبط في دموعها، وتسقط تارة وتنهض، ووراءها هاتورلا يجري ورائها يحاول أن يساعدها، ولكنها لا تسمح له، وظلت هكذا حتى وصلت بيتها لترتمي على الأرض باكية، تضم نفسها كما الطفل الصغير، نزعت خاتمه ورمته، وظلت تبكي صارخة:

- كيف استطاع خيانتي؟ أكنت تسلية الملك المبجل؟

ويحاول هاتورلا الدخول وهي تأبى.

انتهت حفلة الملك على خير وتمت الخطبة، وهاتورلا يجلس خلف بابها حتى أشرقت الشمس وهي على حالها من نحيب وتكسير كل ما في البيت، وهاتورلا قلقٌ عليها لا يريد تركها.

الملك في قصره لم ينم ليلته، إذا كلمه أحد عنفه وغضب عليه، وأقسم على حرّاسه بالقتل إذا وصل له أحد، يسأل عن هاتورلا بجنون، والكل يبحث عن هاتورلا، حتى وجدوه متكئًا على باب بيت صغير، فجلبوه إلى الملك، ما إن رآه الملك حتى ذهب إليه مسرعًا مستفسرًا:

- كيف هي؟

هاتورلا ممثلٌ حزينٌ يقطعه الألم:

- ستتجاوز الموقف لا تقلق يا مولاي، اتركها الآن حتى يأتي اليوم الذي تهدأ فيه، وسأجلب لك أخبارها دومًا، لا تقلق لن أتركها حتى أفهمها على أنّك لم تخن وعدك.

احتضن الملك هاتورلا قائلًا:

- ونعم الاخ والصديق، سأترك هذا الأمر لك، وإن حان الوقت فأنا مستعد، فقط ارعاها كما ترعى الأم طفلتها.

ثم وضع يده على كتفه قائلًا:

- وتذكّر أنها لي ما دمت حيًا.

هاتورلا ببسمة خفيفة مربتٌ على كتفه:

- لا تقلق، ولن تنتظر طويلًا، الآن يجب أن تسعى حتى تستطيع التملص من تلك الخطبة الحمقاء.

يخرج هاتورلا وقد هدأت ثورة الملك، واستدعى الوزير الجديد، وأمين الخزينة الملكية، وقد بدأ يعد خطته لأجل النهوض بالبلاد في وقت قصير، حتى يريح قلبها وقلبه ويجتمعا معًا.

يذهب هاتورلا إلى نامسيا مرة أخرى، وهي فاقدة الوعي، من كثرة البكاء ويناديها ويطرق بابها، وهي لا ترد، فكسر الباب، ووجدها مغشيًا عليها، حاول إفاقتها، ولكن وجد جسمها يلتهب من الحرارة، فاتجه مسرعًا إلى إحدى الجارات لتساعدها على تغيير ملابسها وتطعمها.

هاتورلا بجوارها يمسح جبينها وما إن أفاقت حتى ظلت تبكي، ويحاول طمأنتها ولكن لا فائدة، كل يوم يذهب تذهب معه قطعة من روحها بلا عودة، تموت من الوجع رافضة الحياة، تمسك خاتمه وتبكي، وحينما تتذكر أنه الملك:

- أكان يلهو معي؟ أبنت فقيرة يخدعها؟ لقد أحببته، نعم أحببته، كيف أنتقم لنفسي ياهاتورلا؟

هاتورلا ينظر إليها بضعف قائلًا:

- تزوجيني، لقد أحببتك أضعاف حبه، إنه الملك، كيف لملك أن ينظر لنا نحن الرعاع؟ نامسيا، لقد أحببتكِ حبًا كبيرًا، سأنسيه لكِ، سيستطيع حبي أن ينسيكِ، أقسم لك.

نامسيا تنهمر دموعها أكثر وترد معنفه له:

- أتريدني أن أخون نفسي؟ لقد أحببته وأعطيته روحي، كيف أحب بعده؟ لن أحب من بعده سوى الموت، هكذا أنا أحب، هاتورلا.

هاتورلا محدث نفسه:

- إذًا فلتموتي ولن أتركك، ستتجاوزين هذه الأزمة وسآخذك بعيدًا عنه.

هي تبكي وتبكي ولا تأكل، وإن تركها هاتورلا وذهب إلى الملك طمأنه بأنّها بأفضل حال لا يقلق، وأنه سيخبرها عما قريب، فهي الآن حالتها الصحية تجبره على السكوت، والملك في جنح الليل يظل قريبًا من بيتها ينتظر وينتظر حتى رؤيتها، يحترق من أجلها، خائفًا إن رأته أن تعود لحالتها السيئة مرة أخرى كما أخبره هاتورلا، منتظرًا وعده له.

* * *

مرت ثلاثة أشهر على تلك الحادثة، والملك لا ينام، مُجبرًا الكل على العمل بأقصى قوة له، مرتحلًا إلى البلاد المجاورة يدعم صداقته معهم ويجلب علمائهم؛ لمساعدته في حل تلك الأزمة، وما إن بدأت أحوال البلاد تنتظم وتكتفي بذاتها، حتى دعا الملك خطيبته أوتارا محدِّثًا إيّاها:

- كيف حالكِ اليوم؟

ردت بخجل:

- بخير، ولكن ما سر هذه المقابلة؟ فإنني لم أرك منذ حفل الخطوبة، ولا أراك إلا هاربًا مني.

كاي رع مطرقًا:

- إنك تجعلين التحدث معك صعبًا.

ردت ضاحكة:

- لا أريد الرسميات، فنحن الآن مخطوبان، ألا تذكر؟

رد متوترًا :

- هذا ما أردت التحدث معك بشأنه.

اعتدلت في جلستها لتواجهه مكملة:

- إذًا؟

كاي رع بتوتر:

- أنتِ امرأة جميلة، واعية، مثقفة، تجعلين من يراكِ يقع في حبك، تستحقين أفضل مني، لكن قلبي لم يترك لي الخيار، وقعت في حب امرأة جعلت من حياتي بدونها جحيمًا لا يُطاق، ليس من طباعي الغدر ولا نقض العهود، لذلك لا أستطيع ان أقابل معروف والدك بـ...

قاطعت حديثه:

- لم يكن أبي ليساعدك على حساب جنوده تاركًا بلاده بلا حماية لمعونتك، فلا تجبر نفسك على الاختيار، وأنني لن أكون لرجل لا ينتمي قلبه لقلبي أبدًا.

ثم تركته وانصرفت مودعة، وفي طريق عودته إلى بلاده، جاءه رسول من هـــاتورلا يحمل رسالة بأن يحضر مسرعًا إلى نامسيا.

طار الملك من الفرحة، واستعجل الرحيل، ظنًا منه أن هاتورلا استطاع إقناعهـــا، والآن يستطيع رؤيتها، فقد تمت له الأحوال على خير، أول ما فعل الملك حين وصوله ذهب مسرعًا إلى نامسيا هذه المرة بلا أي تلثيم أو في ظل الليل، هذه المرة ســـيأخذها معه إلى القصر.

طرق الملك الباب، ولم يدع أي أحد من جنوده أن يقتحم مترلها، وفتح لـــه هـــاتورلا، ووجد هاتورلا باكيًا يتنفس ببطء، فهوى قلبه بين قدميه صارخا:

– نامسيا!

وما إن رآها حتى وجد جسدًا تفارقه الروح، تمسك خاتمه بقوة تنظر إليه بعين دامعة:

– طال غيابك عني، أرفقت بحالي ورفق الإله بحالي ليتركني أراك في موتي.

وتسعل بضعف ودموعها تتساقط، وهو يموت بجوارها من الغم والحزن محتضـــنًا إياهـــا قائلًا:

– لقد عدتُ وتخلصتُ من كل تلك الأعباء، عدتُ لك، نامسيا، لقد عـــدت، حبيبتي... انظري إليَّ، ها أنا حبيبتي.

وهنا رفعت يد مرتشعة إليه تلمس خده قائلة بضعف:

– أأحببتني؟

رد ودموعه تتساقط:

– نعم أحبك أحبك، أرجوكِ لا تتركيني.

وتبتسم بسمة خفيفة لتسلم روحها إلى بارئها وتسقط يدها، هزها كاي رع غير مصدقٍ لِمَا يرى، صارخًا باسمها، ويهزها ويضرب الأرض بقوة، ويصرخ ويصرخ وهاتورلا بجوارها يبكي، وضج الجميع بالبكاء.

غادر الجميع الغرفة وتركوهما بمفردهما، وكاي رع يتمزق من الألم يختنق من الحزن، يلهث بلا وعي كمن صار مجنونًا، يصرخ باسمها:

- نامسيا لماذا؟ لماذا؟ أهذا انتقامك مني؟ إنه لأصعب انتقام، لا تتركيني لهذا العذاب، إذا خذيني معك، أقسم بحبكِ إنه لأسوأ انتقام وُجِدَ في التاريخ، نامسيا عودي أرجوكِ....عودي.

ظل الملك علي حاله أيامًا وليالٍ، كارهًا نفسه وحياته يتمني الموت، لا يفارق ضفاف نهر النيل، دائمًا يتذكرها، وتخليدًا لها قام ببناء مدينة جديدة أطلق عليها نامسيا ونقل إليها عاصمته، ثم تنازل عن حكمه لمن يخلفه؛ ليقضي باقي عمره بجوار قبرها في بيتها، يسطر قصة حبهما على أوراق من البردي، وما من شاهد عليها سوى دموعه، يعيش كما عاشت إلى أن يلحق بها، فلتعينه الآلهة على الصبر، وليتخطفه الموت مثلما اختطفها منه، لعله يقابلها في الحياة الأخرى، آملا أنه لو ولد وولدت في زمن آخر، وفي مكان آخر لن يفارقها ولن يعانوا مثلما حدث.

واقف عند ضفاف نهر النيل، وبين يديه صندوقٌ خشبيٌ، يحتضنه ليطبع عليه قبلة أخيرة، ليودعه ملوحًا إليه بيده، يراقب حركته مع الماء إلى أن اختفى عن ناظره. تعمد أن يدع بعض الوريقات الفارغة، لعل من يعثرون على قصته يسطِّرون عليها قصة أخرى أكثر منها سعادة.

وآه لو تغير الزمن.... فمتى نلتقي؟

كاي رع.

الفصل الثاني

(2)

على العهد بقينا، ومن الماضي أتينا، نفتح عهدًا قديمًا، نحيي حبًا دفينًا، يتنقل عبر العصور، في القلوب محفور، ربما مات أصحابه، ولكن قلوبهم ما زالت هنا، في الحاضر.

في مدينة المنصورة، حيث الجامعات والمكتبات، الشوارع وتكدس المواصلات، الدكاكين والمحلات، المدارس والحدائق، والأسواق والمرفقات، في كلية التربية، وفي الطابق الخاص بقسم التاريخ بالتحديد، تقف فتاة بين زميلاتها، تخفي جسدها النحيل خلف سوادها الفضفاض، ولا يظهر من وجهها سوى عيون بنية تتقابل معها أشعة الشمس فتبتسم في هدوء... أما حان وقت المحاضرة؟ تنتظر منذ نصف ساعة.

– ذاك المُحاضِر ماله مخلصًا في عمله، ألا يمل؟ (محدثة نفسها).

الجميع في الخارج يتأفف في ضيق، كل يلقي نظرة سريعة على ساعة يده، إنه يومهم الأول في ذاك العام الدراسي، ولا بشائر من الخير يرونها، فقد أظهر العام معدنه منذ الوهلة الأولى، ويبدو أنّ ذاك المُحاضِر في الداخل سيصيب قلوبهم بالندم على يوم قادهم إلى تلك الكلية اللعينة، فليخلصهم الله منها. "هكذا انطلقت بعض من ألسنة الحضور".

تخطت كل الصفوف، عرفتها من هيئتها، بكل تأكيد هي، فقليل من يشبه هذا السواد الفاحم، اقتربت منها مبتسمة، تطرق على ظهرها برفق، لم ترها طيلة فترة الإجازة، فاستدارت إليها بهدوء، وما إن تلاقت عيونهما حتى ارتمت في حضنها، حتى

أنها أوشكت على الصراخ من المفاجأة، ولكنها تذكرت أنها محاطة بعدد لا بأس به من الشباب، فلتكبت طبيعة الأنثى لنفسها، وتحتفظ بصرخات السعادة بداخلها، لئلا ينفضح الأمر.

- كيف حالكِ إيناس، أفتقدك كثيرًا.

قالتها صديقتها وقد بلغ الاشتياق ذروته، ابتسمت من أسفل نقابها، لتقول بحب:

- أصبحتُ بخير بعدما رأيتك، صديقتي.

أوشكتا على الاستئناف في أحاديثهم ذات الطابع الأنثوي المتمرد، لولا أن لاحظتا حركات من حولهم، الطلاب يخرجون من مدرجهم، ليحل محلهم من هم في الخارج ينتظرون منذ أكثر من نصف ساعة، حتى رحل الكثير منهم، ليقسم أنه لن يحضر ذلك الدرس اللعين، وليذهب مدرسه إلى الجحيم.

تشبثت في ذراع صديقتها لئلا تفرقهم تلك الحشود المتكدسة من الشباب والفتيات، تتذمر بداخلها ولكن ما باليد حيلة، فهكذا تفرض الحياة، تتساءل في نفسها: لِمَ ذاك الاختلاط الغير مبرر؟ ماذا سيحدث لو انفصلت كل فئة في مدرج؟ ولتكن المحاضر ساعة واحدة، بدلًا من تلك الساعات الضائعة بلا فائدة.

لن تغير الكون، ولن تصلح المجتمع وحدها، هكذا قالت صديقتها، لتبتلع ما تبقى في حلقها من كلمات، فربما الأخرى محقة، وصلت إلى آخر المدرج، فجميع المقاعد الأمامية احتجزت بأصحابها، حتى المقاعد الخلفية مكتظة بالطلاب، فماذا لو حضروا جميعًا؟!

تلك المحاضرة تضم جميع الأقسام في الكلية، لهذا السبب تبدو الأسوأ على الإطلاق، سمعت همزات ولمزات من الفتيات حولها، يتغامزون ويتهامسون إعجابًا بذاك المُحاضِر الشاب الذي لم يروه من قبل، يبدو طويلًا ببعض العضلات البارزة، ربما يعمل مدربًا في إحدى الصالات الرياضية ليلًا، قالتها إحدى الطالبات وهي تغمز من بجانبها، لينفجرا بالضحك محاولين التماسك.

لا يظهر لعينيه لونًا، فذاك المدرج كبير، وذاك المُحاضِر يقف على بُعد أمتار، وليته يقترب قليلًا ليتمعنوا النظر فيه جيدًا، لا يظهر سوى لحية قصيرة سوداء، تلك الشعيرات الكثيفة حول الفم والذقن، كفيلة للفلت أنظار الكثيرات إلا من رحم ربي.

تستغفر الله في داخلها، هل فقدت تلك الإناث عقولهن؟ بكل تأكيد فقدن ما هو أغلى، فقدن حياءهن، ضاعت أخلاقهن، نسين القيم والمباديء، نسين قل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن، فليحفظها الله من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

بعد أن سمعت تلك التعليقات من حولها، قررت ألا تنظر إليه، وما عادت تنوي فعلها، تخشى أن يصيب قلبها بفتنة كما أصاب من قبلها، جيد أنها قصيرة القامة، وجيد أنها تختفي بين الصفوف، وجيد أنها لا تراه، ولا تسمع له سوى صوتٍ.

تسجل ما يقوله باهتمام، إنه اليوم الأول وعليها أن تستثمر عامها من أوله، قل تقديرها في العام الماضي، ولابد من تعويض، فكفى كسلًا وتسويفًا.

* * * *

ليست من المنصورة نفسها، تقطن في إحدى القرى المتناثرة على أطرافها، ولابد من عدد لا بأس به من سيارات الأجرة حتى تصل، ويا له من يوم شاق! ليت كان لها صديقة درب تؤنسها في طريقها، تتكلم معها، تسلي قلبها بدلًا من ذاك الطريق الذي مهما كانت سرعة سائقه إلا أنه لا يصل، ضربت عصفورين بحجر واحد، تحب القراءة كثيرًا وبخاصة القصص والروايات، ولأن أيام الدراسة تحرم عليها فعل كهذا، لذا فلتقرأ متناسية زحمة المواصلات، ودخان السيارات، والأصوات المتداخلة من حولها، يؤنسها شخوص رواياتها، وتحدثها سطور قصصها، ويسليها الاستماع إلى أحاديثهم الشيقة إلى أن تصل.

شقة صغيرة في إحدى العمارات القديمة التي على وشك السقوط على رؤوس أصحابها، لولا لطف الله بمن فيها، أب يعمل موظفًا في إحدى المصالح الحكومية لا يسانده سوى مرتبه الضئيل ورحمة الله فوق كل شيء، أم خمسينية ورثت عنها قصر القامة وخصلات شعرها البنية، وأخت أكبر منها قد أنهت دراستها، ولكنها لم تتزوج بعد، فليرزقها الله بالزوج الصالح، وليعوضها خيرًا عن ذاك الخطيب الذي لم يراعِها يومًا، خيرٌ أنهما لم يستمرا طويلًا.

ما بقي غير أخيها الصغير، ذاك المدلل الذي لا يُرفض له طلب، وما يلقبونه إلا بآخر العنقود، اسم يضايقه لذا يتعمدون مناداته به، ليُرى علامات الغضب المضحكة على وجهه.

طرقت الباب ليفتح لها يوسف متشبثًا بالباب على أطراف أصابعه، فما زالت قامته قصيرة، فليته يرث طول أبيه، ولكن ماذا لو كان كأمه؟ هكذا دائمًا ما يقول له

والده، ليقف متشبثًا على أطراف أصابعه عاقدًا ذراعيه النحيلين أمام صدره، وهو يقول بتبرم:

- ليست أمي، سأتبرأ منها إلى أن يزداد طولي.

ذاك الصغير لا أحد يعرف من أين يأتي بتلك الكلمات، حروفه كالسكر ما إن تنطلق من لسانه حتى تجبر الجميع على الضحك، ولو قالها أحد غيره ما ضحكوا، شدته من خده مداعبة:

- أهلًا بآخر العنقود.

مط شفتيه بتذمر وهو يتحسس حقيبة يدها متسائلًا:

- أين الحلوى خاصتي؟

ألقت نظرة سريعة داخل حقيبتها لتقول بأسف مصطنع:

- لقد أكلتها.

تغيرت ملامح وجهه للضيق، ليرمقها بنظرة غيظ لا تناسب سنه، ليجبر الأخرى على الضحك، فتمد يدها في حقيبتها، تخرج منها الحلوى، قائلة:

- وهل تظنني أنساك يا آخر صبري؟

سحب الحلوى من بين يديها، ليتركها جامدة في مكانها ويمضي مسرعًا ناحية الغرفة، وكأنها دخان أمامه، حتى أنها نادته ليأتيها، ولكنه لن يرد عليها، فما عاد

يحتاجها، ذلك الصغير المتمرد لا تهمه سوى مصالحه الشخصية، وما زالت واقفة في مكانها تضحك منه.

تحركت ناحية غرفتها، ليست ملكها وحدها، فأختها الكبيرة تشاركها فيها، أو ربما هي من تشاركها فيها، لقد تنازعتا كثيرًا حول تلك النقطة، ولم يصلا إلى حل نهائي يرضي الأطراف، إلى أن اقترحت عليهما أمهم أن يعرضوا قضيتهم على مجلس الأمم المتحدة، سيفقدونها عقلها عن قريب، فليلطف بك الله، أمي.

دلفت إلى الغرفة بهدوء، تمد رأسها بحذر، لترى ما الذي تفعله تلك الكبيرة، بكل تأكيد تكتب، وهل تفعل شيئًا سوى الكتابة، تصرخ أمها في وجهها ليلًا نهارًا لتساعدها في عمل المنزل، فتنهض لتنفذ الأوامر على مضض، ثم تعود إلى عزلتها مسرعة، لتسمع صوت أمها في الخارج تسخر منها قائلة:

- أكلتك الغربة، خديجة؟!

ولكنها اليوم لا تكتب بل تبكي، بكل تأكيد تبكيه، شخص لا يستحق أن تذرف دمعة واحدة لأجله، لقد نصحتها كثيرًا لتنساه، ولكن الكلام أسهل بكثير، ومن يديه في الماء ليس كمن هو مفحوم في النار، هكذا يكون ردها، ولها الحق في كل ما قالت.

ولكنه لا يستحق، بكل تأكيد لا تبكيه، ربما تبكي سنوات ضاعت من عمرها مع من يستحق، ربما تبكي سذاجتها لأنها صدقته، ربما تبكي قلبها الفارغ الذي منذ أن رحل عنه هذا الكذاب وهي تشعر ببرودة يقشعر منها بدنها، تبكي خيانته وكذبه، فليخلصها الله من شوائبه العفنة.

هرولت إليها أجر أذيال عباءتي لألقي بالحقيبة على السرير متسائلة عن سبب بكائها، رغم أنني أعرفه، لم تحاول أن تمسح دموعها كما كانت تفعل، واجهتني بها لتوجع قلبي، وليتها ما نظرت إليّ، عيونها ملتهبة من البكاء حتى تورمت، سواد يحتويها بعنف وليت كان احتوائه حبًا، ملامح مقهورة لا تناسب فتاة في سنها، وما زادني رؤيتها بتلك الصورة سوى حنقٍ على ذاك الأحمق، كم تمنيت لو أحد يدع لي المجال لأحتوي عنقه بيدي، وأقسم أنني لن أرحمه.

مدت إليّ هاتفها الجوال دون أن تنبس حتى بكلمة، ترى ما الذي رأته ليجعلها تبكي بتلك الحرقة؟ الآن فقط عذرتها، فهمت سبب بكائها، وما من حل سوى ضمها إلى صدري لعلها تهدأ وتسكين، صدقت يا رسول الله، إن لم تستحِ فاصنع ما شئت، ذلك المتعجرف ماذا يظن نفسه؟ وتلك السلعوة التي تظن نفسها قد فازت به، فليذهبا إلى الجحيم... تركتها حتى هدأت وقد حان وقت العتاب، لأجلس قبالتها مستنكرة:

- لِمَ تفتشين وراءه، خديجة؟

تنفست بعمق، لتقول بعد تنهيدة زفرت معها الكثير مما تحمل:

- لا أعرف، ربما حب استطلاع.

اتفحصها بعيني غير مصدقة، ليس مجرد حب استطلاع كما تدعين، أختي، وما عاهدتك كاذبة. لتنهض من مكانها متابعة بضيق:

- أو ربما أردتُ معرفة كيف تسير حياته من بعدي.

"وهل مثل هؤلاء يتغيرون لأجل أحد؟ هل ظننتينه ليحزن ويبكي لأجل خاطرك كما أنت تبكينه؟ ليس منهم أخيتي."

تلك الكلمات لم أصرح بها، لا أريد أن أزيدها همومًا فوق همومها، وهل تحتـــاج إلى من يخبرها بتلك الحقائق؟ لقد كانت أقرب الناس إليه، ولابد أنها تعرفه أكثر مـــن أي شخص آخر.

فوقفت عاقدة ذراعي أمام صدري، متسائلة بحنق، وما حانقة عليها، ولكني غاضبة لأنها سمحت لنفسها بفتح جروحها من جديد، بعد أن أوشكت على الالتئام، أو ربمـــا نحن من نتوهم، فما من جروح تلتئم في أيام:

- ألم تخبريني من قبل أنكِ وضعتيه في قائمة الحظر؟

فأخفضت رأسها قائلة بندم:

- ولكني أزلته منها، لأرى.

فلويت شفتي قائلة باستنكار لعلها تفيق:

- وما الذي رأيتيه، خديجة؟

انتفضت من مكانها لتقول بمرارة شعرت بمرها في حلقي:

- لم أرَ سوى تأكيد على خيانته، طيلة حياته وهو غشاش، ولكن غشه أضـــحى معلنًا، بات مرئيًا للجميع، تلك النفوس التي قد بالغـــت في الحقـــارة حـــتى تبجحت، وما عاد يهمها أحد.

سكتت قليلًا لتتابع قائلة بعد تنهيدة:

- لقد فتحت حسابه على الفيس بوك، وما رأيت سوى تعليقات مـــن الحـــب وتفاعلات من القلوب بينه وبين تلك التي ظنها بسذاجته أفضل مني، أقســـم

أنني كدتُ أن أتقيأ، علاقة قذرة محكوم عليها بالفشل، تسحبه خلفها كما يسحب الراعي الخراف، لا تخشى على سمعتها، ولم يراعِ يومًا مشاعري، غشي الله على عينيه فما عاد يرى، وكأن الطيور على أشكالها تقع.

تحركت لتقف أمام المرآة تضربها بعنف حتى تجرحت يداها:

- ليته يتزوجها، ليسلط الله كل منهما على الآخر، ويشفي جراح قلب لم يؤذِه يومًا، ذنبي الوحيد أنني أحببته، فليغفر الله خطيئتي، ذنب ما زال الله يعاقبني عليه، فعساه يعفو عني ويرحمني.

لم يفت على انفصالهما سوى أيام، وها هو قد كشف عن وجهه الحقيقي، لقد كان يدَّعي بأنه قطع علاقته بها، يدَّعي أنه تغير، حتى أنه كان يوهمها بأنه مظلوم، ربما هي من صدقته، لهذا كانت الصفعة قوية، فحمدًا لله أننا لم نصدقه، وإلا صفعنا جميعًا على أعناقنا، وعاشت أختي طيلة عمرها تتجرع نفاقه، ووقتها لن يشفع لها عنده أحد، حتى ذلك الحب الذي ما زالت تخفيه له في إحدى زوايا قلبها المظلم.

* * *

مكتبة مصر العامة... مبنى متوسط الارتفاع يتكون من عدة طوابق، تغلب على جدرانه لونًا قريبًا من الأحمر، يتخلله نوافذ زجاجية صغيرة، وعند المدخل الرئيسي لها تجد من يستقبل قراءها ليسمح لهم بالعبور مستخدمين تذكرة أو بطاقة تؤكد على انتسابهم للمكان نفسه، ثم في الطابق الثاني تجد العديد من الغرف أهمهم غرفة تحوي كتبًا عديدة في كافة المجالات، كتبًا علمية وأدبية، كتبًا عن الواقع وأخرى عن الخيال، وكل له مريديه.

مكان هادىء يمكنه أن يعد فيه محاضراته استعدادًا للأسبوع القادم، ولا شك أن تلك الكتب من حوله كفيله لتغنيه عن أي معلومة يفتقر إليها، ورغم أن الانترنت قد أتاح البحث بسهولة، إلا أنه لا يستهويه سوى البحث بين صفحات كتاب، والتوغل في أعماق وريقاته، تلك الرائحة المنبثقة من الكتب القديمة والحديثة تنشط المعلومات في رأسه، فكيف يستعين بغيرها؟

ظل يتنقل ببصره بين كتاب وآخر، يتحرك بين الأزمان والعصور، كل كاتب يختلف في أسلوبه، قد تكون المعلومة نفسها، ولكنها تختلف في طريقة العرض، ولا أحد أفضل من الآخر، كل له بصمته الفريدة التي لا يضاهيه فيها أحد، سمع صوت هاتف مرتفع قطع حبال الأفكار في رأسه، ليلتفت إلى صاحبه يرمقه بضيق لاحظه الآخر.

ثم بعدها سمعه يتكلم، ربما صوته معتدل غير عالٍ، ولكنه ضايقه، هل يظنها مقهى؟ أين هو من أخلاق القراء؟ ألم يقرأ عن قواعد المكان؟

وما هي إلا دقائق حتى شعر بصوت احتكاك كرسي يُسحب، ليجلس الشاب نفسه بجانبه، شاب قصير القامة، بحاجبين كثيفين متشابكين لا يناسبان صلعه، يتأمله بنظرة معلقة، أجبرته على غلق كتابه، وترك قلمه من يده، ليتساءل بضيق:

- لِمَ تنظر إليّ هكذا؟!

ما زال الآخر يحدق فيه، ليجيبه ببرود أشعل الغضب بداخله:

- أنت من نظرت لي أولًا.

رغم الغضب المسيطر عليه إلا أنه أوشك على الضحك، بكل تأكيد ليس طبيعيًا، ربما يعاني خللًا نفسيًا، فليسايره ليرى أمره، كتم ضحكاته بداخله، ارتسم الجدية على تعبيرات وجهه قائلًا:

- وهل كل من ينظر إليك ترد له النظرة نفسها؟

فهز رأسه بأن نعم دون أن يتكلم، فتابع الآخر قائلًا بتهكم:

- أما اكتفيت؟!

نهض من مكانه قائلًا ببرود، ووجهه خالٍ من أي تعبير:

- الرمقة عندي توازي نصف ساعة من النظرات المعلقة، ولكن يبدو أنك مشغولٌ الآن، سآتيك في وقت آخر.

تركه في مكانه يتخبط في ذهوله، وانصرف ولا يعلم أين رحل، هل يتكلم بجدية؟ أم أنه يهذي؟ ربما يمزح، ولكن لا يبدو على وجهه أثرًا للمزاح، ذاك الشاب أمره عجيب، وما عاد قادرًا على الانخراط في عمله مرة أخرى.

نهض من مكانه ليغيره، فربما يرحل هذا الغريب عن رأسه، كلما تذكر نظراته يضحك، حتى خاف أن يراه أحد فيتهمه بالجنون، تحرك من مكانه يتخطى درجات السلم، لا يريد مصعدًا لقد تجمدت ساقيه من طول مدة الجلوس.

في الجهة الخلفية من المبنى، يقف متأملًا لنهر النيل، ما إن تكشف له الحياة عن أنيابها أو يضايقه شيئًا أو يشغله أمرًا، حتى يسرع إليه، يسرح فيه، ويلقي فيه بهمومه، ليتكأ على سوره الحديدي قائلًا في نفسه وهو يضحك:

- لهذا يعاني نهر النيل تلوثًا، يظن الجميع أن الناس يلقون فيه مخلفاتهم، متناسين أمر همومهم التي لو فتشنا عنها ما وجدناها سوى في نهر النيل.

سرح بخياله ليعود إلى واقعه على صوت أنثوي رغم هدوئه إلا أنه يبدو شرسًا.

- تبًا لغبائك.

تلفت ببصره ليرى، ربما يضايقها أحد، ولم يجد أحدًا سواها، ربما هاتف أحدهم، وما وجد في يدها سوى كتابٍ، سواد في سواد ولا يظهر لها وجهًا من قفا، تجلس في أحد الزوايا، ويبدو أنها لم تره.

اقترب في اتجاهها متسائلًا بحذر:

- هل ضايقك أحد، آنسة...؟

نظرتها خطفت قلبي، حتى شعرت بأنني رأيتها من قبل، تلك العيون البنية مألوفة لدي، ليتها تزيح ذاك الوشاح عن وجهها، بكل تأكيد أعرفها. (محدث نفسه).

يبدو أنه حملق فيها طويلًا، حتى تضايقت، لتندفع من مكانها متوترة وهي تقول بغضب:

- أحمق!

مرت من جانبه والحرارة في جسدها تلفح وجهه، ولكنه لم يتعمد مضايقتها، فقط أراد المساعدة، تسمر في مكانه معلقًا نظره عليها إلى أن اختفت عن ناظريه، ثم عاد ليقف أمام النهر ثانية، ذاك اليوم الغريب، وكل من فيه يتعاملون بغرابة، يبدو أنه اليوم العالمي للمجانين. انفجر في الضحك، فتذكر أنه يقف وحيدًا ليقول:

– لو رآني أحد لقذفني بالحجارة، فلأعود أدراجي حفظًا لماء وجهي وكرامتي.

* * *

ما إن أتوغل في أعماق رواية أو قصة أقرأها حتى أنسى نفسي واسمي والمكان الذي أجلس فيه، أنفعل وأضحك وأبكي، أعاتب وأخاصم، أتذمر وأغضب، ويبدو أنني سببت أحدًا من شخوص رواياتي دون شعور مني، لهذا السبب تدخل ذلك الشاب، أشعر أنني رأيته من قبل، قلبي بداخلي يرتجف منذ أن رأيته، جسدي يرتعد، وما عدتُ قادرة على الاتزان، لا أعرف كيف انطلق لساني بسبابه، يبدو محترمًا، لم يقصد سوى مساعدتي، ولكنه حملق فيّ طويلًا حتى ظننته سرح في وجهي، هو من جنى على نفسه، وما زلت أراه أحمقَ على كل حال، ولن أتراجع عن موقفي، هكذا حدثتُ نفسها تارة تعاتبها وتارة توبخه ولا تعرف أيهما صواب.

عادت إلى كليتها، فقد حان وقت محاضرة ذاك المُحاضِر الذي انفلق دماغها من كثرة الحديث عن وسامته، جيد أنها لم تنظر إليه، وإلا هذيت مثلهن، تلك الفتيات مبالغ فيهن، ما إن يرين شابًا ينعم بمكانة عالية حتى يتهاتفن على وسامته ولو كان قردًا.

– فليصبرني الله فلا أمتلك سوى مرارة واحدة، وتلك التملقات من حولي ستفقعها بلا شك.

خرجت من شرودها على صوت صديقتها تناديها من خلفها، فالتفتت إليها لتسألها:

- بحثتُ عنك كثيرًا فلم أجدك، أين كنتِ آنستي؟!

لتضغط على كفها قائلة:

- لقد مررتُ اليوم بموقف لا أُحسد عليه.

فانتبهت كل حواسها لتقول:

- فلتصدميني، صديقتي.

قصت عليها ما مر عليها من يومها، وذاك الشاب الذي سبته، فلم تجد منها سوى الضحك، ضربتها على كتفها لتقول بغيظ:

- كم تمنيت لو أجد منك الجدية ولو لمرة واحدة قبل أن أموت.

ولا حل سوى أن تشاركها الضحك كاتمة فمها بكفها لئلا يعلو صوتها ويلتم حولها الجيران.

دخل المُحاضِر، وما عرفت بدخوله سوى من تلك الهمسات من حولها، فأخرجت كشكولًا من حقيبتها وها هي تسجل ما يقول، وما زالت مصرة علي موقفها، ولن تنظر إليه.

***

- أريد حقي!

عادت إلى البيت لتجد العراك قائمًا، لتزفر قائلة بضيق:

- متى أتخلص من تلك الفوضى؟ كم تمنيتُ لو أعود يومًا واحدًا ولا أرى أختي باكية.

هذا المنافق ما زال عالقًا بها يأبى فراقها، أي حق يتحدث عنه؟ أله حقوق عندها؟ يحاسبها على الهدايا المقنعة كوجهه؟ يحاسبها على كل قرش أنفقه عليها يومًا؟ حتى حقها في الذهب يريد نهبه؟ أي الحمقى هو؟ لا تجد وصفًا واحدًا يوفيه، ولا تعلم كيف وضع أبوها يده في يد متلون كهذا؟ أنزع برقع الحياء عن وجهه، أم أن جرعة المخدرات قد مسحت على عقله فأصبح كالحمار لا يفقه شيئًا؟، صم بكم عمي فهم لا يعقلون، إن تكلمنا عن الحق والمستحق، فلا أحد مظلوم سوى تلك الفتاة، أين حقها حينما حطم حياتها؟ أين جبرها حينما صعق قلبها بحقيقته؟ أين طيب خاطرها حينما تركها لتنام كل ليلة ودموعها على وجنتيها لا يعلم بها سوى الله؟ أين حقها حينما أفقدها ثقتها بالجميع حتى بنفسها؟ أله عين ليتكلم؟ أما زال ينعم علينا برؤية وجهه الأسود رغم بياضه، وكأن الله طمس على قلبه، ليطبع على وجهه سوادًا مضاعفًا.

- اعطه ما يريد، خلصني منه ،أبي.

صرخت خديجة بتلك الكلمات باكية بحسرة لتتابع قائلة بصوت مختنق وعيون ترفض النظر إليه:

- لا أصدق أن من أحببته يومًا انقلب ضدي ليعايرني بكل لقمة غمسها في فمي، لا أصدق أن من وثقت فيه واطمئنت إليه التف من خلف ظهري ليغرس سكينه المسمم فيه، ثم يتركني أنزف الدماء.

تنظر إلى أختها الباكية في حضنها، ثم تعود لتنظر إلى ذاك الوغد بغيظ لتتابع في نفسها بكلمات عاجزة عن لفظها:

- وما زال يتلذذ برؤيتك ضعيفة، خديجة، يعلم أنك تحبينه، لهذا يتحدث بثقة، يتكلم من طرف أنفه، ينظر إلى الجميع من فوق سبع سماوات. كم أنت متواضع يا خطيب أختي السابق؟! أقسم أنه لو يفسحون لي المجال، لغمست رأسك في التراب، وما زلت متماسكة لئلا ارتكب جرمًا أندم عليه.

****

انتهت المحاضرة، وانتهى العراك، ومر اليوم على خير، توضأت لتصلي، ثم ارتمت على سريرها بتأوه، لقد كان يومًا شاقا عليها، وبدون شعور منها، وجدته يعبر على خاطرها، ذاك الشاب الذي سبته اليوم فابتسمت، لا تفهم لِمَ شعورها نحوه يختلف، شعور عاجزة عن فك شفراته، ترى متى التقت به من قبل؟ توقن بأنها رأته، تضرب على رأسها لعلها تتذكر، إلى أن راحت في سبات عميق، فكم هي جائعة للنوم.

على الجانب الآخر، يستلقي على ظهره، ما زالت صاحبة العينين البنيتين تشغله، تبدو غريبة من نوعها، رغم ردائها الواسع الفضفاض إلا أنه لا يناسب شخصيتها، يظن من يراها عن بُعد أنها ساكنة، ولكنها مثل القطط ما إن يضايقها أحد حتى تكشف له عن مخالبها، صوتها دافيء لكنه مشاكس، توليفة جديدة من نوعها، ولكنه على يقين بأنه يعرفها، فكيف لم تتعرف عليه؟ يتقلب على سريره في أفكاره المشتتة، ترى هل يلتقي بها ثانية؟ متى الأيام تسمح له؟ ولو عثر عليها هذه المرة، فلن يتركها حتى يكشف عن هويتها، ولكن كيف يقترب منها دون أن تعضه؟ ابتسم حينما تذكر كلماتها المتخبطة، وهيئتها الغاضبة رغم ضعفها، ليروح في سبات عميق، لعله يلتقي بها في أحلامه.

* * *

عاد إلى النهر، ولكن لا ليبثه شكواه، فسببه اليوم مختلف، تمنى لو يراها، يسمع صوتها، يتلفت يمينًا ويسارًا ولا أحد غيره، لِمَ لم يسألها عن اسمها؟ ولكنها لم تعطِه فرصة، ليته راقب خطواتها، سار وراءها ليعرف وجهتها، كيف تركها ترحل بعيدًا عنه بتلك السهولة؟ وكيف أعجب بها من الأساس؟ إنه حتى لا يعرف لها شكلًا سوى تلك العيون التي أسرته.

لم يشعر سوى بيد تطرق على ظهره بخفة، ليلتفت مندفعًا ظنًا منه أنها هي، بكل تأكيد يحلم.

– لقد أغلقت هاتفي وانتظرتك طويلًا، فلِمَ لم تأتِ؟!

انطلقت تلك الكلمات من لسان ذاك الشاب الغريب الهيئة والتصرفات على حد سواء، وما استقبلها سوى بالضحك، ليتساءل الآخر مضيقًا بين حاجبيه:

– لِمَ الضحك، سيد...؟

مد إليه يده مصافحًا، وما أراد صداقته سوى ليتعرف على تلك الشخصية الغريبة وما وراءها، ثم ابتسم قائلًا:

– كريم. وما اسمك إذًا؟!

مسح على رأسه اللامع بلا شعر، ليقول:

– هاني.

فتذكر كلماته ليعيدها متسائلًا:

- ولِمَ انتظرتني، سيد هاني؟!

عقد بين ذراعيه أمام صدره، ليقول بهدوء:

- أنسيت ما لي من نظرات؟!

ذلك الشاب يبدو عجيبًا، كلماته مازحة ولكنه لا يضحك، يظن من يراه عن بُعد أنه يتكلم بجدية، وليته ينطق بكلمة واحدة تعطي معنى مفيدًا.

عقد بين ذراعيه مقلدًا، ليحدثه بنفس طريقته، وبنفس بروده رغم أن بداخله يضحك:

- أما تضحك، أستاذ هاني؟!

فأجابه قائلًا بتهكم:

- وهل أرى قردًا لأضحك؟!

قصف جبهة من النوع الثقيل، ولكنه لن يفوته له، فتبعته قائلًا وما زال محتفظا بثباته:

- وهل رؤية القرود تضحك؟

هز رأسه بثقة، ليقول بكل أريحية:

- لم تعجبني!

ضيق كريم بين حاجبيه، متسائلًا بعدم فهم:

- وما التي لم تعجبك؟!

ليرفع الآخر حاجبه، مشيرًا إليه بطرف عينه قائلًا:

- مزحتك.

عاد لقصف الجبهات، ولأنه ليس ضليعًا في هذا الأمر، قرر أن يعود إلى صـــمته، ينظر إلى النهر، ولا يعلم لِمَ تذكرها، هل أصبح النهر مرتبطًا بعينيها؟ أم أن هناك قصة تجمعهما؟ وما خرج من شروده إلا على صوت الآخر ضاحكًا، يا إلهي! أيضحك مثـــل بقية البشر؟ ذاك الرجل وراءه حكاية لابد أن أعرفها.

نظر إليه محملقًا بنظرات تفحصية، ليضرب على كتفه قائلًا:

- تلك النظرات ستكلفك الكثير.

فتابع بعدم فهم متسائلًا:

- ما قصتك؟!

هز رأسه قائلًا بابتسامة:

- لن تصدق.

استند بمرفقه على السور الحديدي ليقول بسذاجة:

- لقد كنتُ أحد أطراف تلك اللعبة الورقية المرتبطة بإصـــدار أحكـــام علـــى لاعبيها، وقد تم إصدار الحكم عليِّ بأن أذهب إلى أقرب المكتبات، ليصـــدر هاتفي صوتًا يلفت الانتباه، ثم أتحدث بصوت آخر يضايق من حوله، ومـــن يرمقني بضيق، ينفذ عليه شروط الحكم.

يكز على أسنانه بضيق، يضغط على السور بكفه لئلا يصدر منه ردة فعـــل لا تروقـــه ليقول:

- وما الحكمة من وراء ذلك، لا أفهم؟!

ليمد الآخر إليه يده مصافحا مغيرًا مجرى الحديث:

- هل تقبل صداقتي، أستاذ كريم؟

ضيق بين حاجبيه قائلًا بتشكك:

- هل ما زلتُ مقيدًا بلعبتك؟

هز رأسه نافيًا، ليقول ضاحكًا:

- ثق بي.

صافحه موافقًا، وهو يقول بتحدٍ:

- ولكن يومًا ما سأرد لك الفعل نفسه، ولن أنسى.

***

عاد إلى بيته بشعور مختلط، يضحك لتلك الأفكار المراهقة التي لم تنضج بعد رغم نضج أصحابها، ثم يغضب حينما يذكر أن أحدهم استخدمه كلعبة يسلي بها وقته، ولكن لا داعي للتذمر، لقد أدخلوا السعادة على قلبه، ولا ينقصه سوى معرفة قصة تلك المتلحفة في سوادها، ترى هل هي أحد أطراف اللعبة؟ ماذا لو كانت رجلًا يرتدي نقابًا؟ أيعقل أن أكون أحببتُ رجلًا؟!

انفجر بالضحك وما عاد قادرًا على التماسك، حتى دخلت أمه الغرفة ضاحكة، فنهض من مكانه ليفتعل أنه يتحدث عبر الهاتف، وإلا ظنت ابنها المُحاضِر مجنونًا.

أنهى مكالمته المزيفة، فوجدها تجلس على طرف السرير ترمقه بنظرات ذات معنى، ترى ما الذي تريده؟!

– لقد وجدتُها، كريم.

جلس قبالتها على طرف السرير متسائلًا بعدم فهم:

– من، أمي؟!

تهللت أساريرها، لتتابع قائلة بحماس:

– عروس تناسب مقامك؟

ضيق بين حاجبيه، متسائلًا بدهشة:

– أي مقام؟!

سحبته من يده ليقف أمام المرآة قائلة بفخر:

– ألا ترى؟ شابًا وسيمًا متعلمًا، وابن ناس.

عاد ليجلس مكانه قائلًا بعدم اقتناع:

– كل بني آدم أبناء ناس أمي، أم أن لكِ رأيًا آخر؟

اقتربت منه قائلة بابتسامة:

– أعلم، بني، ولكن على كل حال تلك العروس تناسبك.

أومأ برأسه بعدم اقتناع ليقول:

– ومن قال أنني سأتزوج بتلك الطريقة؟! لن أتزوج إلا ممن يشير إليها قلبي بالموافقة.

ربتت على كتفه قائلة برجاء:

– فقط القِ عليها نظرة، وإن لم تعجـ...

قاطعها قائلًا بضيق:

– بنات الناس ليسوا بلعبة أمي، وما دمت لم أخترها بنفسي، فلن أقبل بها، مهما حاولتِ.

***

كل يوم وفي نفس الموعد الذي التقت فيه أعيننا، ينتظرها، ربما تمر خلسة، ربما تعود صدفة، وما من صدفة واحدة تشفع لفضوله، لا يعلم لِمَ يبحث عنها، أهو حب استطلاع للكشف عن هويتها؟ أم أن هناك سببًا آخر لا يعرفه؟ كيف أعجب بها؟ ما زال غير مقتنع كيف تعلق بشخص ربما لن يلتقيها ثانية، يتخبط في حيرته، ليست هكذا شخصيته، لقد كان أكثر قوة قبل لقائها، كان فخورًا بكونه حازمًا لأموره بلا تردد.

يتعجب من نفسه كثيرًا ليقول بحيرة:

– ما الذي أصابني، وما الذي تغير؟

تتحرك في اتجاه المكان نفسه، تفكر فيه مثلما يفكر فيها، تبحث عنه ولكنها لا تعترف لنفسها، تشعر بوخزات ضميرها تؤنبها، ليس بقريب أو حبيب، ليس بزوج أو أب، ولا صلة لها به، فلِمَ تنشغل به؟ ولِمَ تلقي له بالًا من الأساس؟ أتلك هي لعنة الفتنة؟ أذلك هو بلاء النظرة؟ ليتها ما نظرت إليه، وليتها ما وبخت تلك الشخصية الخيالية في روايتها، فسحقًا لهم جميعًا.

تراجعت عن وجهتها، لن تعود إلى المكان نفسه، ولكنها تعشق النهر، فكيف تفارقه؟ ولعة بالقراءة، فكيف تبتعد عنها؟ تبحث عن حل يرضي جميع الأطراف، تأمن به من غضب ربها، تحتمي من وخزات ضميرها، ولقد وجدته بالفعل.

نهر النيل أطول نهر في العالم، ليس شرطًا أن تقف في الجهة الخلفية للمكتبة، ستقف في مكان آخر بعيد عن تلك المكتبة، أما عن الكتب والقراءة، فستكلف صديقتها لتستعير لها ما تريد، إلى أن يمر من الوقت ما يكفي لتنسى ذاك العابر المجهول، وبعدها ستعود إلى مكتبتها مرة أخرى، ربما تفتقدها كثيرًا، ولكن لا حل سوى ذلك، فلتتحمل وتحتسب الأجر عند الله.

* * * *

وفي إحدى الصالات الرياضية، يمارس تمارين قاسية بعض الشيء، لقد كان والده رحمه الله هو من دفع به إلى تلك الرياضات المختلفة حتى باتت أساسًا من أساسيات حياته، ولا غنى عنها، تلك الرياضة زادت من ثقته بنفسه، باعدت بينه وبين كل ما له علاقة بالنيكوتين، وما إن يضايقه أمرٌ أو يصعب عليه حتى يهرع إليها يفرغ فيها كل طاقة سلبية في جعبته، لن يطمئن قلبه إلا بعدما يلتقي بها، ولن يهدأ إلا بعدما يعرف عنها كل كبيرة وصغيرة، ولن يكون هو إن لم يتزوجها، هكذا أقسم في داخل نفسه، وهو يرتكز بكفيه على الأرض يعلو ويهبط بلا محاولة للتوقف.

لا داعي للمراوغة، إن كان تعلق بها، فلابد أنه أحبها، كيف ومتى ولماذا وأين؟ لا يعرف ولا يملك إجابة واحدة ترضي عقله، وما خرج من شروده إلا على الصوت نفسه، مناديًا باسمه، فاندفع من مكانه، والعرق يتصبب على جبينه متسائلًا بذهول:

– هل تراقبني؟!

فأجابه الآخر باسمًا:

– أنت من تراقبني، أنا مشترك هنا منذ فترة طويلة.

ضيق كريم بين حاجبيه بعدم اقتناع متسائلًا:

- ولكني لم ألتقِ بك هنا من قبل.

مط الآخر شفتيه بعدم اهتمام مخمنًا:

- ربما لأني لم أكن آتي إلا نهارًا.

فأمسك كريم بقارورة من الماء يفتحها متسائلًا بتشكك:

- وما الذي تغير؟!

جلس الآخر على مقعد قريب منه، ليجيبه قائلًا بخيلاء:

- ألم أخبرك من قبل بأني ملاكمٌ؟

فاقترب منه مستنكرًا:

- وما علاقته بسؤالي؟

تابع الآخر مبررًا:

- هناك مسابقة سأشترك فيها، لذا لابد من التمارين المكثفة، ولهـــذا أتيـــت في الفترة المسائية.

ضيق بين حاجبيه مشيرًا له بإصبعه قائلًا:

- أشم رائحة غدر في المكان.

استنشق هاني بطريقة تمثيلية، ليتسائل قائلًا بنبرة ساخرة:

- وما رائحته، أيمكنك أن تصفه لي؟

ليقصف جبهته قائلًا بابتسامة:

– مثل رائحتك تمامًا.

تشكك الآخر من رائحته فراح ليتأكد، مما أجبر كريم على الضحك، وهـا هـي أول صفعة يردها له، مثلما فعل فيه من قبل.

* * *

تتضور جوعًا، ولا شيء سوى الخبز والجبن، وهل يجوع أحدٌ في هذا الوقت المتـأخر من الليل؟ لقد أكلت حصتها من الغداء والعشاء، أما يكفيها؟

– حسنا، أفضل من اللاشيء، سأعد كوبًا من الشاي، لتحلو السهرة.

سمعتها أختها تتحدث مع نفسها، ولا تفهم لِمَ دائمًا تحادث نفسها، هـل تعـاني فراغًا عاطفيًا، أم أنها مجنونة بالفطرة؟ وهل ستظل صامتة؟ فتحت عينيها قائلة باستنكار وبصوت ناعس:

– شاي بعد منتصف الليل، إيناس؟!

انتفضت من مكانها لتتفل في فتحة بلوزتها بطريقة تمثيلية، وهي تقول:

– أفضل من أن أنحرف وأشرب ما هو أسوأ، أختي.

انتزعت الغطاء من على جسدها، لتقول ضاحكة:

– إذا فليكن كوبين من الشاي؟!

غمزتها إيناس قائلة بابتسامة:

– وهل ألقفك بسندوتش من الجبن المشوي؟!

ضيقت بين حاجبيها، ضاحكة، وهي تقول باستنكار:

- مشوي!؟

اقتربت منها الآخرى لتهمس في أذنها قائلة بطريقة تمثيلية:

- يا عم، تخيل.

فاعتدلت خديجة في جلستها لتجاريها قائلة:

- حسنا، فلنتخيل أن تلك الجبن فخذًا من الضأن المشوي.

فتابعتها الأخرى قائلة:

- والشاي هو الحساء.

لينفجرا ضاحكين، لولا أن تذكرتا أن الوقت ليلًا، والهمسات فيه تُسمع من على بُعد أميال، ليعودا إلى صمتهما، وما زالت الضحكات تأبى مفارقة الوجوه.

***

وجدت حلًا آخر يشفع لها حبها للقراءة، المكتبة المتعلقة بقصر الثقافة، ليست بعيدة عن مكتبة مصر العامة، ولكنه حل مؤقت إلى أن يتحرر عقلها من ذاك الغريب المجهول، وهل اكتفى بسرقة عقلها؟ قضت مدة لا بأس بها في تلك المكتبة الغير المألوفة لديها، لم تدخلها من قبل ولكنها أفضل من اللاشيء.

لقد عرضت على صديقتها أن ترافقها، ولكنها لا تحب القراءة ولا تستويها تلك الأماكن، إنها تتفحص كتب المناهج الدراسية على مضض، فكيف تقرأ كتبا إضافية لن تفيدها في شيء، هكذا كان رأيها، وما جادلتها طويلًا.

خرجت من المكان بأسره، ولكنها لم ترد أن تستقل أحد سيارات الأجرة، ستسير على الرصيف الموازي لنهر النيل، مشيت طويلًا وسرحت كثيرًا ولا تعلم فيما سرحت، شعرت وكأنها انفصلت عن العالم بأسره، تسير بلا هدف محـــدد، ولا تعلـــم إلى أيـــن وجهتها، وما شعرت بنفسها إلا وهي واقفة في المكان نفسه، ذاك المكان الذي تهـــرب منه لئلا تراه، تلك الخلوة التي كانت تعتزل عندها العالم بأســـره، قبـــل أن يـــأتي ذاك الغريب فيقتحمها بلا استئذان.

استندت بذراعيها على ذلك الجدار الحديدي القصير، تمنت لو كانت صديقتها معي لتخطته جالسة على ضفة النيل، لعلها تجد من يشاركها مغامراتها.

– لا مانع لدي.

هل تحدثت بصوت عالٍ، أم أن ذاك الغريب شخص من خيالهـــا، ربمـــا تتـــوهم وجوده، ربما تمادت في قراءة القصص الخيالية حتى فقدت عقلها، انتفضت من مكانها، وقفت متسمرة لثوانٍ، تجمدت الحروف على طرف لسانها، ولا حل سوى الانسحاب، ينظر إليها مبتسمًا وكأنه يعرفها.

– أنا التي أعرفك، ولكني لا أذكر أين التقيت بك من قبل.

حروف عاجزة عن لفظها، تشعر بها تخنقها، وما من حل ســـوى الانســـحاب. تركته جامدًا في مكانه، لتمر من أمامه متخبطة في أفكارها وأذيال عبائتها الطويلة حتى كادت أن تقع، حاول أن يسألها عن اسمها ولكنها لم تسمح له، ولولا أنه لا يحل لـــه، لتشبث في ذراعيها مانعًا إياها بالقوة، ولكن تلك المخالب المستترة مـــا زال لا يـــأمن مكرها.

تتبع طريقها من على بُعد لئلا يلاحظ أحد، ولسوء الحظ للمرة الثانية تختفي من أمامه وكأنها تبخرت، توغلت في إحدى سيارات الأجرة وكأنها اتفقت مع سائقها بأن يمضي مسرعًا ولا ينتظر، جري ليلحق بها، حتى ظنها رأته رغم أنه لا يراها، تلك القامة القصيرة يمكنها أن تختبيء في أي مكان، وبسرعة لا تقدر بكل المقاييس العالمية.

ليضرب الأرض بغيظ قائلًا:

- لقد كانت أمامي، كيف أضيعها من بين يدي بتلك السهولة؟ فسحقًا لي ولحماقتي!

اقتحمت أحد سيارات الأجرة كما يقتحم البوليس المكان، ولحسن الحظ أنها كانت مكتملة بركابها ولا ينقصها سوى شخص واحد لينطلق السائق بلا عودة، انغمست بين الركاب تختبيء، ولا تفهم لِمَ تخفض رأسها، إنها قصيرة ولا تحتاج لتلك الحيل الخاصة بأصحاب القامات الطويلة، لا سامحهم الله.

صدرها يعلو ويهبط بلا توقف، تلهث خلف نقابها حتى كادت أن تختنق، دقات قلبها ربما تخطت كل الأصوات العالية من حولها، ذاك الغريب أمره غريب، هل يراقبها؟ لِمَ يظهر لها بتلك الصورة؟ ولِمَ يلهث خلفها؟ هل يريد الأخذ بثأره لأنها عنفته؟ ولكن الأمر لا يستحق كل تلك الفوضى، سبة صغيرة لن تضر، وليمسحها فيها هذه المرة.

لا أخفي عنكم رغم تخبطها إلا أنها كادت أن تسبه مرة أخرى، ولكنها ابتلعت الكلمات في حلقها، فلا تريد مزيدًا من الأخطاء، عوضها الله قصر قامتها في طول لسانها، لهذا تحاول أن تكون لطيفة قدر المستطاع لئلا تصيب من حولها بالذهول.

عاد إلى المكتبة مرة أخرى وهو يجر أذيال خيبته وراءه، يتأفف بضيق، لقد كانت أمام عينيه ولا يفصلهما بضع سنتيمترات، استقل المصعد فما عاد قادرًا على الاتزان، ليلملم أغراضه التي كان قد تركها قبل أن يراها، وآه لو يراها ثانية. ألقى نظرة سريعة على النهر الجاري عبر النافذة الزجاجية في الأعلى، ليرتسم بصيص أمل في قلبه، طالما أنه التقى بها مرة وثانية، فلابد من الثالثة، والثالثة ثابتة بإذن الله.

أقسم بداخله ألا يعود لهذا النهر إلا بصحبتها، ولن يطمئن إلا بعدما يرافق اسمها الذي ما زال لا يعرفه اسمه، تلك المتمردة القصيرة أفقدته صوابه، غيرت نظرته للعالم من حوله، شغلت فكره بعدما كان لا ينشغل سوى بما يعده من محاضرات، ورغم ذلك فهو سعيد لرؤيتها.

كل يسير في اتجاهه، والقلب مساره مشترك، ما زال قلبه بحوذها، وما زالت تهرب بقلبها منه رغم تيقنها بأنه قد تملكه، لا تقتنع بأن هذين اللقائين هما من أسرا قلبها بتلك الصورة، هناك سبب آخر ولكنها تجهله، يفتش كل منهما عن علة واحدة لذلك الحب الغريب من نوعه، أي حب هذا؟ إنه لم يرها سوى مرتين، ولم تلتقِ به سوى لقائين، ذاك اللقاء الثاني مكنه من التوغل في أعماقها وما عاد ينوي الرحيل، كيف تأكل وتشرب وتنام وما عاد يشغلها غيره؟ بعدما كانت ترفع يديها لله داعية بالخلاص، ها هي تسأله برجاء فإن كان خيرًا فليأتها به.

* * * *

بعد مرور أسبوع... عادت إلى شقتها الصغيرة تطرق بابها بخمول، تشعر بالنقص بدونه، برودة في قلبها منذ أن فارقته، ليفتح لها آخر العنقود فأمها مشغولة في مطبخها، وبكل تأكيد ما زالت أختها في نفس مكانها مثلما ودعتها في الصبح، قبلت أخيها بين عينيه، تضمه إلى صدرها، أحب الناس إلى قلبها هو، رغم ضمته الصغيرة إلى أنها دافئة، كادت تبكي لحال وصلت إليه بغير إرادتها، ولكن ليس الآن، ستحتفظ بدموعها إلى أن تختلي بنفسها، همست في أذنه متسائلة بابتسامة لا تناسب حالها:

- أين خديجة إذًا؟!

فأجابها بعفوية قائلًا:

- سمعتها تهاتف خطيبها في الداخل؟!

ضيقت عينيها في ذهول قائلة:

- أي خطيب؟ هل تقدم أحد لخطبتها دون علم مني، أم أن ما فهمته صحيحٌ؟

تركت أخيها في مكانه لتهرع إلى غرفتها تفتح بابها باندفاع، وما إن لمحتها أختها حتى ارتبكت وتوترت وتغير لونها، وما عادت قادرة على الإنكار، دلفت إلى الغرفة بخطوات بطيئة، فلمحتها تخفي هاتفها أسفل وسادتها، ولن ترواغ طويلًا، ستواجهها بما رأت فما تعودت السكوت، كم تمنت لو تعاملت بتلك الشجاعة مع ذاك الغريب العابر، لا تعلم أين تختفي قوتها كلما رأته... جلست على طرف السرير والصمت يرج المكان، ترمقها بنظرات غضب تظنها فهمتها، لتقف قائلة بارتباك:

- لِمَ تنظرين إليّ هكذا؟!

فأجابتها بصوت هادئ يحاول التماسك:

– أنتِ تعرفين السبب، فلِمَ السؤال؟

تحك كفيها ببعضهما، تراوغ بعينيها بعيدًا عنها متسائلة بارتباك:

– أي سبب، إيناس؟

لتقول في نفسها بتوعد:

– حسنًا أختي، طالما أنكِ تخشين المواجهة، إذا فلا بد من المبادرة، وسأفعلها الآن، والموقف ما زال في حموته، فبعض الأمور لا تستلزم التسويف.

تضرب على طرف السرير في حنق متسائلة:

– لِمَ عدت لمحادثة ذلك الجبان؟!

التفتت الأخرى إليها قائلة بتذمر واستنكار:

– إيناس!

فاندفعت من مكانها لتسألها بغضب:

– أيضايقك سبه؟ هل نسيت ما فعله؟

عادت لتجلس قبالتها قائلة والأمل يتراقص في عينيها، لا تدري كيف عاد ليؤثر على عقلها مرة أخرى، وكأنه يخدرها بكلماته، ويسحر قلبها، فلا ترى سوى ما يريد لها الآخر أن ترى منه:

– ولكنه تغير، إيناس.

فاندفعت قائلة بوجه ممتعض:

- كما الثعبان، خديجة.

دفنت رأسها بين كفيها قائلة بأسى:

- ولكني أحبه، وما عدتُ...

وهل ستنتظر لسماع المزيد من تلك الحماقة، اقتربت منها بضيق تشد على كتفها بقوة لا تناسب جسدها النحيل لعلها تفيق، ولولا أنها أختها الكبيرة لصفعتها على وجهها، رأت حقيقته كاملة، لدغت من جحره آلاف المرات، وما زالت لم تتعلم:

- أحبِّكِ برص أعور، وخلصني منك ومن سذاجتك المستفزة.

نظرت إليها من خلف دموعها ولم تعلق، تعرف أنها مخطئة، وبكل تأكيد ليست راضية عن نفسها، كادت أن تشفق لحالها، أوشكت على البكاء بجوارها، فالحال واحد، ولكنها ما زلت متشبثة لئلا تزلق قدماها، لتشير إليها محذرة بسبابتها، وبنبرة حادة لتتعظ:

- إن كلمتِه ثانية، فلن يتدخل أحد سوى أبي.

ثم اقتربت منها هامسة بتهديد:

- هل تعرفينه؟

تركتها جامدة في مكانها تبكي وأسرعت إلى الحمام تتروي في أحد أركانه باكية، جيد أنها لم تنزع النقاب عن وجهها لترى حسرتها عليها، تعلم أنها قست عليها ولكنها تعمدت ذلك، تعرف طباع أختها جيدًا، إن ضمتها إلى صدرها مشفقة عليها فستعود للفعل نفسه، لهذا تعمدت تعنيفها بكلمات محذرة لتفيق من سباتها العميق، وها هي تضرب وجهها بالماء ليختلط بماء عينيها قائلة بضجر:

- وذاك الخطيب المتعجرف حسابه معي أنا.

* * *

يعمل في إحدى الأماكن القريبة من المكتبة، ولا تعرف لِمَ كل أحداث حياتها تدور حول المكان نفسه، تشعر بمغناطيس قوي يسحبها نحوه، حتى من قبل أن تلتقي بذاك الغريب، هاتفته لتطلب منه لقائها في المكان نفسه الذي تعودت المكوث فيه طويلًا في عزلتها، لابد أن تضع النقاط على الحروف، وترسم له حدودًا مع أختها لئلا يتعداها ثانية، كادت أن تشكي لأبيها فعلها، ولكنها خشيت عليها ردة فعله، ولولا أنها على يقين بأن والدتها لا تخفي عنه شيئًا، لأخبرتها بما حدث، ولكنها لا تضمن صمتها.

لقد كانت تحترمه كثيرًا وتقدره كأخ كبير، ولكنه خالف العهد فسقط من أعينهم جميعًا، وقفت تنتظره في المكان المتفق عليه وفي الموعد المحدد، ولأكون منصفة، تلك الصفة فيه تعجبها، يحترم مواعيده ولا شيء بعدها يحترمه، جيد أنها وجدت فيه شيئًا مميزًا، كم ودَّت لو تُلقي به في هذا النهر ليجرفه بعيدًا عن حياتهم، ولكنها تخشى على مائه التلوث.

لمحته يأتي في اتجاهها فامتعض وجهها وجيد أنه لا يراه وإلا تقيأ من هيأته، تلك الشخصية لا يناسبها العنف، ولا يمكن تهديدها، يختلف كل الاختلاف عن أختها، ولا تعرف كيف كان ليعيشا في بيت واحد، تصنعت اللطف على مضض، لتأتي بكل ما عندها، ويبدو أنها ما عادت قادرة على التماسك، فاشتدّ الجدال بينهما، فسبّها وسبّ أختها، وهل تسكت له؟ لقد ردَّت له الفعل نفسه، ولكن بطريقة مهذبة، ويبدو أنها لم تعجبه، ومن الواضح أن تطاوله قد تعدى لسانه ليتجاوز إلى يده.

***

يجلس في المكتبة كعادته، ولكنه ما عاد ينوي الوقوف أمام النهر، لقد أقسم بداخله ألا يأتيه إلا بصحبتها، لذا يكتفي بمراقبة مائه من على بُعدٍ عبر النافذة الزجاجية في الأعلى، لمحها تقف مع شاب ثلاثيني، فغليَ الدم في عروقه، ربما ليست هي، ربما واحدة تشبهها، وقف يراقبها من بعيد، لعلها تلتف ليرى عينيها، ولو رآهما لعرفها، ترك الكتاب من يديه، يحاول أن يسترق السمع، ولا يسمع شيئًا، وهل سيظل جامدًا في مكانه ينتظر؟ تحرك من مكانه، يسرع إليها، فرغم أنه لا يسمع شيئًا، إلا أن تعبيرات وجه ذاك الشاب لا تروقه على الإطلاق، وكأنه يتشاجر معها.

رفع يده في الهواء لترتطم على وجهها، لقد تعمدت استفزازه، وما تحملت غروره، ذلك المتعجرف من يظن نفسه؟ وما أوقفت قبضته سوى قبضة أخرى أكثر منها غضبًا، فتحت عينيها لتراه أمامها، ذاك الغريب العابر، لأول مرة تراه بتلك الصورة، وجهه ممتعض، وقد برزت عروق جبهته، يتطاير الشرار من عينيه، ويبدو أنها أتت لتكحلها فعمتها، كتمت فمها بكفها لئلا تصرخ، فخطيب أختها المبجل قد أخرج من جيبه سلاحًا أبيض.

- أوه! ماذا يفعل هذا الأحمق؟

صرخت ليبتعد، حاولت أن تفاديه، لتصيب السكين كفه، فتتدفق الدماء منه، ويهرب ذاك الجبان بعيدًا، ولا تعلم أين انصرف ولا يهم، فما يهمها الآن سوى شخص واحد، ما زالت محتارة في أمره، تلفتت إليه ونبضات قلبها ترتجف بداخلها، وما عادت

مستوعبة ما تراه، منظر الدماء في كفه أثار الرعب بداخلها، تتلفت يمينًا ويسارًا لتبحث عن شيء تضمد به جرحه الذي لا تعرف إن كان غائرًا أم سطحيًا؟

تحمد الله في داخلها أنّ تلك المشاجرة لم تدم طويلًا، ربما لم يمر عليها سوى ثوانٍ حتى أنها تكاد تجزم أنهم أقل، مر الموقف سريعًا حتى لم تستطع استيعابه، حاولت أن تتكلم، تسأله عن حاله وألمه، وكأن الحروف قد التصقت في حلقها فما تنوي الخروج، لتفتح حقيبة يدها تبحث عن وسيلة تكبت بها دمائه، وما وجدت سوى تلك الرباطة الخاصة بنقابها والتي تربطها على جبهتها، ولا تعرف ما الذي أتى بها هنا، أخرجتها سريعًا لتمد له بها قائلة بلهفة وفزع:

- اربطها حول كفك.

ما زال الآخر يحدق فيها بنظرات غاضبة، وكأنه لا يؤلمه جرحه، لا يعبأ بدمائه المتناثرة من كفه، ولا تفهم لِمَ ينظر إليها هكذا، طال تحديقه، فشعرت بالارتباك، تتلفت يمينًا ويسارًا، ألا يوجد هنا أحد ليخلصها من تلك الورطة؟ حاولت أن تتكلم، لتقول بصوت متهدج ونبرة متوترة:

- شكرًا لك.

تاركة له اللفافة ليضمد بها جرحه، لتمضي متخبطة في جراحها، فما عادت تحتمل كبت دموعها، وبكل تأكيد لن تبكي أمام هذا الغريب الذي ما زالت لا تفهم لِمَ يطاردها، لم يحاول أن يمنعها، تركها تعبر بجانبه بسلام، حالته لم تسمح له للحديث معها، ظن لو أنه تكلم لانطلقت من حنجرته كلمات حانقة لن تروقها أبدًا، كفاها نظرات الشرار التي لمحتها في عينيه، يتساءل في نفسه:

- من هذا الصعلوك الذي كانت تحادثه؟ ولِمَ تقابله في مكان كهـــذا؟ لا أظنـــه أخيها ولا قريبها، ويبدو وكأنه....

هز رأسه بعنف لئلا يستسلم لتلك الفكرة، نار الغيرة بداخله تحرقه، ليته وبخهـــا بدلًا من تلك الجمرات بداخله، ليته سألها عن علاقتها به، ولكن بكل تأكيد ما كانـــت لتجيب، احتوى لفافتها في كفه، كمن يقبض على الجمر، ليخرج باحثًا عنها، بعـــدما تركها ترحل بإرادته، فأي الرجال هو؟!

بكل تأكيد لن تعود إلى بيتها الآن، فلو رآها أحد على تلك الحالـــة لانكشـــف أمرها، مشاعر متخبطة تدغدغ قلبها، اضطراب وندم وتوتر وضيق وحنق ووخزات من الضمير لا ترحم.

" لِمَ عدتُ إلى المكان نفسه؟ ألم أقسم من قبل أنني لن أعود إليه ثانيـــة؟ لِـــمَ أخـــنس عهودي مع الله؟ ثم من بعد ألوم "أسعد" على نفاقه، وأنا أكثر منه نفاقًا، كيف ظننـــت أنني ساحل مشكلة أختي بتلك الطريقة الخالية من كل نضج؟ ولو كان طفلًا ما فكـــر مثلي، هل ظننت نفسي رجلًا يمكنه مفاوضة ذاك المتعجرف؟ هل ظننت نفسي أستطيع التحكم في غضبي أمامه؟ لقد تعامل بكل برود ولم تشتعل النار بداخله إلا بعدما سمعني أتلفظ باسم تلك الحية ساخرة، ألهذا الحد يحبها؟ ربما لو كان غضبه لأختي مثلما غضب لأجلها، لحملته فوق رأسي مرحبة، وليته ما قبل دعوتي، لِمَ لم أكتفِ بمحادثتـــه عـــبر الهاتف؟ ظننت لو أنني حدثته وجهًا لوجه سيكون الأمر أقل"

حدة، لم أتوقع يومًا أن يتطاول ذاك الهمجي بتلك الصورة، لم يقدر تلك الأيام التي أكل فيها عيش وملح في بيتنا، لم يفرق بين رجل وامرأة، تبًا له ولخسته.

وليت الأمر توقف عند هذا الحد، ربما لو صفعها على وجهها ومضى لكان خيرًا، لِمَ تدخل ذاك الغريب؟ ومن أين أتى؟ تشعر وكأنه ينبثق من العدم، يترل من السماء، يظهر من تحت الأرض، لا تعلم أين كان يختبيء، وكيف ظهر بتلك السرعة لتكون حركة يده أقوى من حركة يد الآخر في اتجاهها؟!

ولِمَ ينظر إليها هكذا؟ هل يظنها كانت على موعد غرامي مع ذاك الأحمق؟ يبدو وسيمًا ولكنه لا يشرفها قربه، ألا يعلم أنه خطيب أختها السابق؟ وكيف يعرف وهي كالقطار، لا تدع له المجال لينفس عما بداخله؟

- ولكنني تسمرت أمامه ولم يسألني عن شيء، حتى أنه لم يحاول أن يلاحقني مثلما فعل من قبل، تلك النظرات الممتعضة في عينيه تأبى فراق عيني، ترى كيف يفكر فيّ الآن؟ ستنفجر رأسي إن لم يجيبني أحد.

* * *

توجه إلى الصالة الرياضية لينفس فيها عن كل غضب يشعله، ما زال الجرح في كفه ملتهبًا، ولكن الوجع في قلبه كان أقوى، يشعر بنار تتأفف في داخله، يلوم نفسه كل مرة، لأنه تركها تمضي دون سؤال، لا يعلم أين تاهت حروفه حينها، لا يستطع الكلام مع أحد حينما يكون غاضبًا، يعلم لو أنه فعل فربما يصيبه بسهام في قلبه تظل عالقة به إلى أن يموت، لم يرد أن يكون أول حديث بينها وبينه بتلك الصورة المشينة، ليته ربط كفها بكفه بتلك اللفافة وما تركتها تبتعد، هل سيحالفه الحظ لرؤيتها ثانية؟ بكل تأكيد ما عادت تنوي المجيء إلى ذاك المكان.

يضرب الوسادة المنتفخة أمامه بيد واحدة، فيده الأخرى لـــن تســـمح، والعـــرق يتصبب من جبينه، ولا يهم، شعر بطرقات أحدهم على ظهره، ولولا أنه تماسك لهشم رأسه، فوالله لا يطيق لمسة واحدة من أحد.

– ما لك تنظر إليّ هكذا، هل ستأكلني؟!

رمقه بغيظ ليعود إلى الفعل نفسه، ولو لم يرحل الآن، فلا يدري كيف ستكون النظـــرة التالية... وقف قبالته قائلًا وما زال يبتسم ببرود كعادته:

– ما بك، يا صديقي، هل ضايقك أحدهم؟

نظرة ثاقبة إلى الوسادة المنتفخة أمامه، لا ينظر إليه، ولو فعل فربما يحرقه بشرار عينيـــه، ليتابع قائلًا بنبرة تهديد:

– ابتعد عني الآن.

غمس كفيه في جيبيه وما زال محتفظًا بنبرته الباردة:

– وماذا لو لم أبتعد؟!

ما زال لا ينظر إليه، يحدق في نقطة لا يراها، ليقول بحدة وباختصار شـــديد، وللمـــرة الأخيرة:

– ستندم.

يبدو أنه ظنه يمزح، وما زال يقترب، وقبل أن ينطلق لســـانه بكلمـــة إضـــافية، إذا بقبضته يتغير اتجاهها، لترتطم في وجهه، وليلطف به الله، تسمر الآخر في مكانه مذهولًا، هو من جنى على نفسه، حذره أن يبتعد ولكنه لم يفهم، يبدو أنه لم يره من قبل غاضبًا، وليته ما رآه.

* * *

مرت الأيام والأسابيع لتكتمل بشهر، وما عاد يراهما، حتى أيقن بأنهما لم يكونا سوى أحد أطراف لعبة، أو ربما مجرد أوهام في خياله، يذهب إلى المكتبة، يفتش عنها في كل الزوايا، يبحث عنها في كل النواحي، ولا يراها، ثم يعود إلى الصالة الرياضية ربما يلتقي به مرة أخرى، ليلوم نفسه متسائلًا:

- لِمَ اختفى؟ بكل تأكيد غضب مني، لقد عاملته بطريقة فظة، وذنبه الوحيد أن القدر قاده إليّ في ذلك اليوم.

ما عاد قادرًا على التركيز والاتزان، صعب عليه الانخراط في عملي، أرق نومه، وشحب لونه، ينظر إلى المرآة فيصيبه الذهول من هيئته، إنه لم يتأثر بتلك الصورة يوم أن مات والده، التئم جرح يده بعض الشيء، ولا يعلم لِمَ استمر التهابه كل هذه المدة رغم أنه لم يكن عميقًا لهذا الحد، وما زال محتفظًا برباطتها في جيبه لا تفارقه، على أمل بلقائها ثانية.

* * *

وكأن العدوى أصابتها، تغيرت كثيرًا، ما عادت تقبل المزاح، تغيرت طباعها، انعزلت عن الجميع لا تخرج إلا تأدية لمحاضرات لابد من تلبية ندائها، ولولا أن الامتحانات على الأبواب ما وطأت قدماها خارج عتبة بيتهم، تلحفت في سوادها كما العادة ولا لون آخر ترتديه، تتحرك بخمول وثقل في قلبها لا أحد يعلم به سوى الله، حرمت المكتبة على نفسها فما عادت تسمح لها بالمرور ولو بجانبها، حرمت كل

حواسها من التوغل في أعماق نهر جميل، وكأنها سمكة خرجت من الماء فماتت، جسد بلا روح، وعيون بلا لمعة، وابتسامة منطفئة لا تتعدى حدود المجاملة.

ما عادت تسمع همسات الطالبات من حولها إعجابًا بوسامة ذاك المُحاضِر الشاب، ولولا أنها تعرف صوته جيدًا لظنته قد تبدل بمُحاضِر آخر، يبدو أنها كانت مجرد فترة من الإعجاب وانتهت، فقد تعودوا رؤيته مرة كل أسبوع، وما من جديد فيه يلفت الانتباه، وما زالت لا تنوي النظر إليه، كفى ذاك الغريب الذي أصابها بفتنته، فمتى الخلاص؟!

غمزها صديقتها هامسة، ولأول مرة تسمعها تعلق على ذاك المُحاضِر، هل فقدت صوابها، أم أصابها عدوى جنون ممن حولها؟:

- هذا المُحاضِر يبدو مريضًا.

تنحنحت قائلة بضيق:

- شفاه الله.

وكزها في يدها لتتابع هامسة:

- انظري إليه! يبدو منطفيًا حتى أن صوته..

قاطعتها قائلة بغضب:

- لا شأن لنا به، هل أتينا لنستمع إلى محاضرته أم لنتفحص حالته النفسية؟!

رمقتها بنظرة لم تفهمها، ولم تهتم بتحليلها، فما عاد يهمها شيءٌ، لتعود إلى تلك المحاضرة اللعينة تضغط على القلم في يدها بضيق قائلة بصوت لا يتعدى حدود حنجرتها:

- متى أغمض عيني وأفتحهما لأجد نفسي متكأة على سريري؟ فوالله ما عدتُ أطيق رؤية أحد.

انتهت المحاضرة على خير، ولكن صديقتها لم تنتهِ، ما زالت هناك كلمات عالقة في حلقها، ولابد من لفظها لتخنقها بها، إنها صديقتها ولن تكف إلا بعدما تصرخ في وجهها محذرة.

- ما بكِ، إيناس؟
- لِمَ هذا السؤال؟ ألهذه الدرجة يظهر عليها أعراض حبه؟ أم أن من على رأسه بطحة فليحسس عليها؟!

ابتلعت تساؤلاتها في حلقها، لتجيبها وبإختصار شديد:

- لا شيء.

اعترضت طريقها لتقف، تنظر في عينيها بنظرات تفحصية لتقول بتشكك:

- أنتِ وذاك المُحاضِر أمركما عجيب.

ألقت عليها نظرة سريعة لترى ما الذي تعنيه؟ ومالها وماله؟ فتابعت قائلة بعدم فهم:

- لو كان يعرفك، لظننت أنه يحبك.

تنهدت بضيق من كلماتها، لا تريد مزيدًا من التخبط، أما يكفيها ذاك الغريب الذي أفقدها صوابها؟ لِمَ تبحث عن شباك أخرى تورطها فيها، أم ما الذي تريده؟ ولكنها صديقتها، وبكل تأكيد لا تتعمد إيذائها، كادت أن تنسحب من أمامها، لا تريد سماع كلمات إضافية، وما عادت تحتمل معضلات جديدة في حياتي، لتشد الأخرى على كتفها قائلة بجدية:

- صدقيني، إيناس،هناك شيء مشترك بينكما، ولكني عاجزة عن معرفته.

تنظر إليها من خلف دموعها، إنه الشعور نفسه! ذاك الإحساس الذي يعتريها كلما تطرق صوته إلى أذنها! نفس شعورها نحو الغريب الذي ما زالت لا تعرف إن كان إنسيًا أم من فصائل الجن، لا كلمات تقولها، ولا حروف تقبل المرور من بين شفاة مرتجفة، ويبدو أن صديقتها قد فرغت ما كان في جعبتها، رغم أنها ما زالت ترى حروفًا مرتسمة على وجهها، ولكنها أيضا عاجزة عن فك شفراتها.

* * *

امتحان شفوي... الامتحانات على الأبواب، ولا تفهم ما فائدة ذلك الامتحان الشفوي اللعين، أما يكفيهم تلك الضغوط التي أثقلت قلبها فزادتها همومًا فوق همومها؟ أصعب فترة تمر عليها في حياتها، ضغوط من كل النواحي، وكأن أحدهم قد ألقى بها في وسط صحراء جرداء لا زرع فيها ولا ماء، ثم من بعدها أعلنوا اندلاع الحروب، فألقوا إليها بسلاح أعوج لتدافع به عن نفسها، كيف تدافع عن نفسها وهي في تلك الحالة

من الوهن؟ وكيف تقبل على امتحان، وعقلها مشتت عاجز حتى عن القيام بأبسط مهامه؟

وقفت تنتظر دورها في تأفف، وما عادت قادرة على الوقوف، تشعر بدوار في رأسها، وما زالت تقاوم، شحب لونها وأزداد ضعفها، وقد حان دورها ولا مفر، استندت على ما تبقى لديها من قوة، تحتضن كتابها لعله يسندها إن وقعت، تتحرك ببطء كمن هو ذاهب للموت، ترى هل سترسب في ذاك الامتحان اللعين؟ ترى أي سؤال سيعرض عليها؟ إنها لا تذكر شيئًا.

دخلت غرفة الأساتذة بخطوات ثقيلة، قلبها يرتجف بداخلها، ليست مستعدة إطلاقا لهذا الامتحان، فأين المفر يا الله؟ منصة يجلس خلفها ثلاث أشخاص، ولأنها لم تنم ليلة أمس، ولأنها لم تتناول حصتها من الفطور، فالرؤية أمامها مشوشة وشبه معدومة، فعسى أن يرأفوا بحالها.

بكل تأكيد هو واحد مما يتابعون الاختبارات الشفوية، لقد اعتذر مسبقًا عن تلك المهمة، ولكن الظروف هي من حكمت، يلقي السؤال على الطالب، ويوقن بأنه لن يسمع إجاباته، ولو وجد أحدًا غيره يتولى الأمر لانسحب منذ أول سؤال. لمح فتاة هزيلة تتلحف في سوادها فانتفض قلبه بداخله، وما إن تيقن من عينيها حتى عرفها، طيلة تلك الأيام السابقة وهو يبحث عنها في كل مكان، يفتش عنها بين الوجوه الملثمة وهي قريبة منه، يتحسس رباطتها في جيبه وهي تجلس قبالته، ولكن إن كانت إحدى طالباته، فكيف لم تتعرف عليه؟ ربما عرفته ولكنها خشيت المواجهة، أو ربما لم تكن تحضر من الأساس.

أشار إليها أحد الجلوس بالتوجه ناحيته، وكلما اقتربت منه يشعر بحرارة تسري في جسده، توتر وارتباك تمنى لو لم يلحظه أحد، حاول التماسك ليبدو في صورة ثابتة، فوالله ما يريد سوى ضمها إلى صدره معاتبًا على تلك الأيام التي قضتها بعيدًا عنه. تقترب ناحيته بخطوات ثقيلة، وعين معلقة على أرض لا تراها، تدعو الله بداخلها أن يرأف ذاك الأستاذ بحالها، ويعفيها من سؤاله.

أغمضت عينيها لتستطيع التركيز، تحاول أن تستحضر المعلومات في عقلها لتكون مستعدة، تضغط على رأسها بكفها ضغطات متباطئة، حتى سمعت صوت جمد الدماء في عروقها، وقضى على ما تبقى لديها من قوة.

- هل أنتِ بخير آنسة...؟

ألقت عليه نظرة سريعة فوجدته هو! هو نفسه ذاك الغريب المجهول! من أتى به إلى هنا؟ صوته يشبه صوت المُحاضِر، ولكن ذاك المُحاضِر ما كان يحدثهم إلا من وراء مكبر صوتي، ولكن نبرة الصوت واحدة، هل هو نفسه؟ أم أنهما شخصيتان مختلفتان؟! ضاق نفسها، وما عادت قادرة على الوقوف، لتقع أرضًا مغشيًا عليها، ولا تدري ما الذي حدث بعدها. وكأنها لم تره من قبل في الكلية، رأى الذهول في عينيها المنطفئتين، لمح الدموع المتحجرة خلفهما، وما توقع أن تكون هكذا ردة فعلها؟ هل خافت أن يتسبب في رسوبها لأنها نعتته من قبل بالأحمق، أم ظنته سيرد لها الجرح في يدها جرحين؟!

سمع صوت ارتطام جسدها النحيل بالأرض، وكأن الصوت نفسه ارتطم في قلبه، اندفع من مكانه يهرع إليها متناسيًا كل تلك الأعراض التي كان يعانيها منذ

دقائق مضت، ولولا أنه يخشى مضايقتها لحملها منتقلًا إلى أقرب مسعف، ولكنه خشي ألا يروقها الأمر، اقتربت منها إحدى الزميلات في العمل لتكشف عن وجههـــا حـــتى تستطيع التنفس، ولا يعرف ما الذي دفعه لينظر إليها، وجه شاحب مصفر، شفاه رقيقة مزرقة، ودموع تسير على وجنتيها، تمنى لو يستطيع مسحها.

خاف أن يرى وجهها رجل غيره، فوقف يتلفت يمينًا ويسارًا، ليراقب المكان مـــن حولها، ليوبخ نفسه قائلًا في نفسه:

- تبًا لي ولغبائي، وهل الظرف مناسبًا لتلك الغيرة الحمقاء؟

وبمساعدة البنات من حولها، تمكنت من استعادة وعيها، فأشار إليهن متلهفًا بنقلها سريعًا إلى مكتبه، ولا يدري ما الذي دفعه لطلب كهذا؟ وكأنه أصبح شخصًا مبـــهمًا حتى أمام نفسه.

ها هو الآن يجلس خلف مكتبه، فمتى تسمح له بنعيم قربها، تستند برأسها على صدر صديقتها، وليته كان مكانها، ليسمعها تقول بضعف:

- أين أنا؟!

- آه لو تعلمين أنكِ هنا في قلبي، ترى هل تشعرين بي؟

همست صديقتها في أذنها بكلمات، فوجدتها تنتفض في مكانها كمن لدغها عقرب، حاولت النهوض ولكن قدميها لم تسعفاها، فنهض من مكانه ليجلس قبالتـــها، يتأمـــل جسدها المرتعش، ويديها المرتجفتين، متسائلًا بعينيه:

- لِمَ ما زلت تبكين حبيبتي؟ هل ضايقك رؤيتي؟ ألست سعيدة لقربي كما أنا...

تتأمل صديقتها المتشبثة في ذراعها، ثم تعود لتتفحص وجه ذاك المُحاضِر، أعراضهما واحدة، وكأن العدوى نفسها، الوجه الشاحب والعيون المنطفئة، التوتر والارتباك، الكفوف المرتعشة، والكلمات المرتسمة في عيونهما، لا يظهر لصديقتها سوى عينيها، ولكنها كافية لتعبر عن حالها، ولولا أن هذ الاستاذ ما زال يحتفظ ببعض من القوى، لوقع أرضًا مغشيًا عليه مثلها تمامًا.

وما زال جامدًا في مكانه يتخبط في تساؤلاته، لا يعرف بأي الكلمات يفتتح حديثه معها، يتأتأ كطفل صغير في أول خطواته للنطق، هل يسألها عن حالها؟ أم عن سبب لغيابها؟ هل يسألها عن ذاك الرجل الذي كان بصحبتها؟ أم ماذا يقول؟ صدقًا لا يعرف، فسمع صديقتها بجانبها، تتساءل قائلة:

- هل ستمتحنها اليوم؟

أومأ برأسه بأن لا، وما زالت نظراته معلقة عليها تأبى فراقها، متناسيًا أمر تلك الصديقة بجانبها، لِمَ لا تنظر إليه؟ لِمَ تهرب بعينيها منه؟ أما كفاها بعدًا وجفا؟ ليت تلك الصديقة تفسح لهما المجال ليتحدثا معًا بلا حرج، ما زالت متشبثة في ذراع صديقتها تخفي وجهها بعيدًا عنه، ليست قادرة على المواجهة، وليتها قادرة عن الانسحاب، تتساءل في نفسها عن تلك الصلة بينه وبين الغريب المجهول، نفس الملامح والشكل، نفس الهيئة ونفس الصوت، فكيف لم تدرك منذ زمن؟! لهذا السبب كان شعورها نحو هذا المُحاضِر هو الشعور نفسه نحو ذاك الغريب، لأنهما واحد! ولكنها لا تفهم لِمَ هذا الشعور بالتحديد، إن كان الغريب أصابها بفتنته لأنها نظرت إليه، فلِمَ ذاك المُحاضِر رغم أنها لم تنظر إليه يومًا؟ ربما بسبب تلك التعليقات من حولها؟ أو ربما..... صدقًا لا تعرف، ولكن بكل تأكيد هناك سبب آخر، ما زالت لم تتوصل إليه.

سمح لها بالرحيل فما عاد قادرًا على رؤيتها ضعيفة، وما عاد يتحمل هروبها مني، ولكنه لم يخطئ ككل مرة، لقد تمكن من معرفة اسمها كاملًا، وهذا يكفيه، طلب منها أن تترك له رقم هاتفها ليطمئن عليها، ولكنها لم تقبل، فقام بإعطاء صديقتها رقم هاتفه فربما تحتاج المساعدة، يشعر بأن هناك كلمات عالقة بحلقها، ولكنها تأبى الإفصاح عنها في حضرة تلك القطة الشرسة رغم ضعفها.

* * * *

عاد إلى بيته لا ينوي القيام بأي عمل إضافي في مثل هذا اليوم، لا يعرف أيسعد لرؤيتها؟ أم يحزن لجفائها؟ جفاء لا يناسب ضعفها، وقناع من القسوة ترتديه لا يعلم ما الذي تخفيه خلفه، لِمَ هي حزينة بتلك الصورة؟ هل ما زال ذاك الهمجي يضايقها؟ وما موقعه من قلبها؟ ذلك السؤال كلما عرض على رأسه يشعر بحرارة تسري فيه، والدماء تغلي في عروقه، لا يريد لأحد غيره أن يمتلكها، إنها له هو ولن تكون لغيره.

تقلب على جانبه الأيمن لتعود إليه ابتسامته، رغم ردة فعلها الغريبة من نوعها إلا أنه سعيد لأن القدر ساقها إليه من جديد، لا يصدق أنها إحدى طالباته، تراه دائمًا رغم أنه لم يكن يراها، فهل كانت تتأمله عن بعد؟ أم ما زالت تظنه أحمق؟

* * *

هاتفته صديقتها لتحديد موعد آخر لاختبارها، لِمَ لم يحدده معها قبل الرحيل؟ و كيف ستقدم على امتحان من هذا النوع؟ لقد كانت تتخبط يوم أن كان الاختبار يسري على الجميع، فكيف سيكون حالها في ذاك الامتحان الانفرادي؟ وكيف ستتكلم في حضرته؟ وكيف ستعود إلى مكتبه ثانية؟! لِمَ كان ساكنًا لا يتكلم، و لِمَ شعرت

بأنفاسه مضطربة بجانبها؟ هل يبادلها الشعور نفسه أم أنها تتوهم؟ بكل تأكيد لم يكن يذكرها من الأساس، فمثل هؤلاء يمر عليه كل يوم أشكال وألوان من الفتيات المختلفة، فهل سيتركهم جميعًا لأجل واحدة لا يظهر لها وجهًا من قفا؟!

تم تحديد الموعد معها بعد أسبوع رغم أنه يتلهف لرؤيتها، ولكنه فضّل أن يترك لها فرصة كافية لتستعد وتستعيد نشاطها من جديد.

توجه إلى المكتبة كعادته، إنه المكان المفضل لديه برغم تعدد الأماكن من حوله، ولكنه يجد فيه نفسه، يشعر وكأن روحه ولدت فيه، ليس فقط لأجل القراءة والكتب، فالكتب حوله في كل مكان، حتى غرفته تعبأ بها، ولكن إحساسه في هذا المكان بالتحديد لا يمكنه وصفه بالكلمات، كمن هو ميت فارق الحياة ثم عادت إليه روحه من جديد.

وضع أغراضه أمامه على سطح الترابيزة، فتذكر تلك الرباطة في جيبه، ولا يعلم لِمَ تذكرها الآن، وكأنه يشعر بحرارتها في جسده، فأخرجها بتعجب يتحسسها، وما إن لامست الجرح القديم الذي ما زال في مرحلة التعافي، حتى شعر بوخزات محرقة وكأن جيشًا من النمل يسري في كفه، حملق في كفه غير مصدق، يضغط عليه بفزع ولا يفهم ما الذي أصابه، حروف من الدم تظهر ببطء غير قادر على فك شفراتها، احتقن الدم في عروقه، شعر وكأنه انتقل إلى عالم آخر، وما عاد يشعر بزمن، كفه يرتجف بقوة، وما زال الألم يزداد شيئًا فشيئًا، إلى أن دخل أحدهم ليختفي كل شيء وكأن شيئًا لم يكن.

ما زالت يحملق في كفه غير مستوعب، ربما لم ينم جيدًا، بكل تأكيد يهذى، يتحسس كفه فيشعر بحرارته وكأن هناك أقوامًا من الجراد كانوا يسيرون عليه، ثم

يتحسس تلك الرباطة فيشعر بنسمات دافئة تلفحها، وما من تفسير منطقي يفسر له ما حدث، سوى أنه مجنون، عاد إلى البيت مسرعًا، أغلق الباب بالمفتاح، ليلقي كل ما كان في يده بعشوائية مخرجًا الرباطة من جيبه، ليضعها على الجرح ذاته، ولا شيء حدث، أين الدماء؟ أين الحروف؟ وأين النغزات؟! لا يدري.

* * *

مر الأسبوع وليته لا يمر، رغم أنها تتلهف شوقًا لرؤيته، إلا أنها لا تعرف كيف سيكون اللقاء، دقات قلبها تتضارب كلما تخيلت نفسها واقفة أمامه تسأل فتجيب، كيف سينطلق لسانها بالحروف، وكيف ستعيد المعلومات على رأسها في حضرته؟ تبحث عن رباطة جبينها الخاصة بنقابها ولا أجدها، لا تذكر أين وضعتها، ولو لم تجدها، فذاك النقاب أصبح في عداد القدم ولن ترتديه ثانية، إنه أحب الأنواع إليها، فأين تجدها؟ أمسكت بهاتفتها تضغط على أزراه بتوتر، وما هي إلا ثوانٍ ليأتيها الصوت قائلًا بعشوائية:

- بكل تأكيد تريدينني أن آتي معك لأصطحبك إلى مكتبه.

لتضيق بين عينيها متسائلة بتشكك:

- وكيف عرفت؟!

ابتسمت الأخرى من توترها الذي لاحظته في صوتها لتقول:

- قلب المؤمن دليله، إيناس.

لتزيد من توترها قائلًا بحنق:

- هيا هيا، لا وقت لدينا، سأنتظرك.

أغلقت هاتفها على عجل وكأنها تهرب من الدخول في موضوع ما إن تَلِجَ إليه حتى تتعثر ولن يمكنها الخروج ثانية، تخشى أن يعرض عليها سؤالًا لمحته في نبرة صوت صديقتها، وبكل تأكيد لن تجيب.

ها هي الآن على بُعد أمتار من مكتبه برفقة رفيقتها، وما زالت تحاول الحفاظ على اتزانها لئلا تفقد الوعي ثانية، ويبدو أن من بجوارها قد شعرت بما أصابها، فطوقت ذراعها بذراع الأخرى ليتجها إلى مكتبه... طرقات خفيفة على الباب، لتسمع صوته يأذن لها بالدخول، ولا أخفي عنكم لقد سقط قلبها في أخمص قدمها، وعادت إلى الأعراض نفسها، لاحظت صديقتها جسدها المرتعد بجانبها، فشدت على كفها تتقدمها مشجعة، قدم تقدم وأخرى تؤخر، وكأنها تريد الهرب بعيدًا عن ذاك المكان بأسره، أشار إليها بالدخول، فتحركت تجر قدمها بضعف، وها هي تنتظر سؤاله، وبإشارة مبهمة وجدت صديقتها تخرج من المكتب، لتتركها بصحبته وحيدة ولا تفهم ما الذي دفعها لفعل كهذا؟! وقفت تتخبط في حيرتها، تهمس في نفسها بصوت خافت مرتعد:

- هيا أرجوك، انطق بذات السؤال اللعين، لعلي أجيب عنه سريعًا فأرحل.

جامدة في مكانها تنظر إلى أرض لا تراها، فشعرت به ينهض من مكانه ليقف قبالتها قائلًا بنبرة دافئة:

- كيف حالكِ، إيناس؟
- أي حال؟! هل أتيت إليك لتسألني عن حالي، ثم من أعطى لك الحق لتناديني باسمي، قل سؤالك ودعني أمضي قبل أن أفقد الوعي. (محدثة نفسها)

- أكلمك، فلِمَ لا تردين عليّ؟!

ابتلعت ريقها بصعوبة، هل هذا السؤال جزء من امتحانه، أم ما الذي يريده منها، ولا حل سوى أن تجيب بصوت متحشرج يأبى المرور من بين شفتيها:

- الحمد لله.

- الحمد لله أنني رأيتك ثانية، إيناس.

دقات قلبها كما المطارق في الحروب، لِمَ يتحدث معها بتلك الأريحية وكأنها زميلته في العمل وليست مجرد طالبة؟! ويبدو أنه أشفق لحالها، فأشار إليها لتجلس، ذاك الطلب كانت تنتظره بفارغ الصبر، فما عادت قادرة على الوقوف، تحركت لتجلس على الكرسي المجاور لمكتبه، فلمحت رباطة رأسها التي كانت تبحث عنها صبح اليوم، لقد أعطتها له بنفسها يومها، فكيف لم تذكر؟! تحرك مسرعًا ليجلس خلف مكتبه، ليسحب الرباطة من أمامها ويعيدها إلى جيبه، ترى لِمَ يحتفظ بها؟ و لِمَ لا يعيدها إليها؟ ستلقي بنقابها في سلة المهملات إن لم تستعِدها، ولأن الطبع غلاب، ولأنها لا تحب السكوت عن حقها، أشارت إليها قائلة:

- إنها رباطة رأسي.

ابتسم فعاد ليتقوقع على نفسه، ليقول:

- ولكني أحتاجها.

وهل يرتدي نقابًا؟ لِمَ يحتاجها؟ إنها لا ترى جروحًا في كفه، أم أنه ينوي الدخول في معركة أخرى؟ تمتمت بكلمات قائلة:

- سألقيه في سلة المهملات بلا شك.

ابتسم متجاهلا كلماتها، ليتابع قائلًا:

- هل مستعدة للاختبار؟

أومأت برأسها بأن نعم على مضض، لتجيب في نفسها بتوتر:

- أقسم أنني لست مستعدة سوى للبكاء.

فسمعته يسأل قائلًا:

- اذكر المراحل العمرية في حياة الإنسان.

حاولت أن تتكلم فتعثرت حروفها، لتسقط كلها أرضًا وكأنها تبخرت، فأشار إليها أن تسجل إجابتها في ورقة، أخرجت كراستها من حقيبتي بيد مرتعشة، ليتابع الآخر قائلًا:

- وهناك سؤال آخر مرتبط بالسؤال الأول.

لتضرب الأرض في حنق وكلمات بداخلها ودت لو أفصحت عنها:

- كفى سؤالًا بارك الله فيك، وهل تراني أذكر شيئًا؟

ولأنه لا يسمع صراعاتها الداخلية، إذا به يتابع قائلًا:

- وفي أي مرحلة من حياته يكتمل؟

لحظ تعثرها في خجلها، لم يكن يعلم بأنها خجولة إلى هذا الحد، ولا يصدق أن تلك التي نعتته بالأحمق هي نفسها من ترتجف في توتر، يتأملها وهي تكتب بيد مرتعدة على عجل، وكأنها تريد الخلاص سريعًا، إلى أن انتهت لتمد إليه بالكراسة ليرى ما كتبت.

- لِمَ لم تجيبي عن السؤال الثاني؟

- آسفة، ولكني لا أذكر أنني قرأته في الكتاب.

- أنت فعلا لم تقرأيه من قبل، لأنه ليس في الكتاب.

حاولت أن تخمن إجابته، فربما يختبر ذكاءها، لتجيبه قائلة، وقد بدأ توترها يقل:

- أظنه يكتمل في مرحلة الشيخوخة المبكرة!

فأومأ برأسه بأن لا، فعادت لصمتها تفكر، هل رسبت في الاختبار؟!

فصل الورقة الخاصة بإجابتي عن كراستها، ليغلقها ثم دسها في جيبه، ذاك الرجل أمره عجيب، لِمَ يحتفظ بكل شيء في جيبه؟! ثم نظر إليها قائلًا بابتسامة:

- انتهى الاختبار.

ضيقت بين حاجبيها قائلة بعدم فهم:

- ولكني لم أعرف الإجابة الصحيحة.

ليبتسم بهدوء، قائلًا بنبرة واثقة:

- ستعرفينها قريبًا إن شاء الله.

خرجت من مكتبه تحدث نفسها، ذاك الرجل سيفقدها عقلها، فوجدت زميلتها ما زالت في انتظارها، رمقتها بغيظ حتى كادت تنصرف من أمامها دون أن تكلمها، فاستوقفتها لتقول متجاهلة أمر تصرفها:

- هل تسير الأمور على ما يرام؟!

ألقت نظرة سريعة عليها لتقول بتذمر:

- لا أظن ذلك.

فشدت على كتفها قائلة بقلق:

- لِمَ ؟!

سحبت كتفها من بين يديها بضيق، قائلة بعتاب:

- لو كان يهمك أمري، ما تركتيني وحدي.

وجدتها تبتسم ولا تعلم لِمَ تبتسم، لتدافع عن نفسها قائلة:

- ولكنه هو من أشار إليّ لأخرج.

فتساءلت باندفاع:

- لِمَ ؟!

عادت لتبتسم مرة أخرى، وهي تقول بنظرات ذات معنى:

- فلتسأليه!

* * *

مر أسبوع على ذاك الامتحان، وما زالت تبحث عن إجابة لسؤاله، في أي مرحلة يكتمل الانسان؟ هل يقصد مرحلة الرشد والنضج، ولكنه ما زال لم يمر بتجارب كافية وخبرات، بكل تأكيد ليست مرحلة الهرم، وليست الطفولة أو المراهقة، وما بقي غير الكهولة، تلك المرحلة ما بين الـ**40** والـ**60** تكفي ليكون الإنسان قد مر بتجارب ومواقف عديدة في عمله وحياته اليومية، ضربت على جبهتها بكفها لتقول حانقة:

- ليتني نطقت بها، ترى ما الدرجة التي حصلت عليها؟!

ولأنها تدقق في التفاصيل، فما زالت لم تقتنع بتلك الاجابة رغم أنها ترضيها، ويبدو أنه أصبح الآن باستطاعتها الذهاب إلى المكتبة، مبررة أحقيتها في ذلك، قائلة:

- ذاك الغريب ما عاد غريبًا، وما عاد يشغلني أمـــ... بكل تأكيد أكذب.

ولكن لابد أن تذهب إلى المكتبة، لقد اشتاقت إليها كثيرًا، وما عاد ذاك القصـــر الثقافي يشفع لها عندها، رغم كتبه العديدة ومجالاتها المختلفة إلا أن شعورها في تلـــك المكتبة يختلف، كل شيء من حولها بات غامضًا، حتى أحاسيسها نفســـها لا تفهمهـــا، شعور مرتبط به وبالمكتبة لا ينفصل عنها، ربما لأنها التقت به هناك؟ ولكنه كان يراودها الإحساس نفسه في المدرج رغم أنها لم تكن تعلم أنه والغريب واحد! هناك مغنـــاطيس يسحبها نحوه وبقوة، تحاول أن تفلت من حيز قوته ولكنها عاجزة، ولا تفسير يبرر لهـــا ما وصلت إليه، سوى أن تكون قد وقعت في حبه.

جلست تبحث بين الأوراق، قرأت عن كل المراحل العمرية، وما زالت تقرأ، ولن تكون إيناس إن لم تجبه عن سؤاله، هكذا أقسمت في نفسها، سؤال يبدو سهلًا، ولكـــن تلك الثقة التي حدثها بها جعلتها توقن بأنه لا أحد يعرف إجابته غيرها، وكأنه أصـــعب سؤال في العالم.

- هل تسمحين لي بقلم؟!

رفعت بصرها لترى من يتكلم، فوجدته شاب أصلع، ذو حاجبي كثيفين، هيئته لم تريحها على الإطلاق، ولولا أنه لمح القلم في يدها لاعتذرت منه.

- اسمي هاني.

تبًا لك يا هذا، وهل سألتك لتجيب؟ مالي واسمك؟ رمقته بغيظ ولم تعلق لترحل من المكان بأسره، ولأن ذاك الأحمق أغضبها، فقد اندفعت بتذمر، لتترك بطاقتها الشخصية على سطح الترابيزة وترحل.

* * *

- عمِّ تبحثين، إيناس؟!

اقتربت منها أختها متسائلة بعدما وجدتها قد قلبت حقيبتها رأسًا على عقب.

- أين وضعتها، ماذا لو نسيتها في المكتبة؟

اقتربت منها متسائلة بعدم فهم:

- عن أي شيء تتحدثين إيناس؟!

ما زالت منكبة على حقيبتها تفتش، لتلقي عليها نظرة سريعة قائلة:

- بطاقتي الشخصية لا أذكر أين وضعتها.

لتتابع الأخرى قائلة بثقة:

- إن كانت في المكتبة، فستجدينها إن شاء الله، اطمئني.

ارتمت على السرير بتأفف، لتقول بحنق:

- لو لم يضايقني ذاك الأحمق، لما نسيتها.

فضيقت الأخرى بين حاجبيها متسائلة بضحك:

- أي أحمق تقصدين، فما أكثرهم اليوم؟

لتمط شفتيها مجيبة:

- لا أعرفه، ولكن اعتقد أني رأيته من قبل في المكتبة.

شعرت بأختها سعيدة على غير العادة، فنهضت من مكانها متسائلة بنظرة تفحصية:

- خير إن شاء الله!

جلست قبالتها على طرف السرير قائلة بابتسامة خجلة:

- يبدو أن الله عوضني خيرًا.

فشدت على كتفها متسائلة باهتمام:

- كيف؟

اتسعت ابتسامتها لتقول:

- شاب طموح يقال أنه يختلف كل الأختلاف عن ذاك الأسعد.

غمزتها بطرف عينها متسائلة:

- وما له؟

ابتسمت قائلة بخجل:

- أستأذن أبي ليراني.

اندفعت من مكانها متسائلة بفرحة:

- متى؟!

فضحكت قائلة:

- بعد يومين.

احتضنتها بسعادة بالغة، وما سعدت إلا لرؤيتها سعيدة، لقد نطقت اسم ذاك المدعو بأسعد، لا أسعده الله، بكل أريحية، و تلك علامة جيدة لتؤكد أنه ما عاد يشغل حيزا من قلبها، تخلصت من شوائبه العالقة به، خسارة لأجله الحزن والندم، جيد أنها لفظته من قلبها بتلك السرعة، وما كان يستحق أكثر من ذلك.

* * *

ما زالت الأيام تمر، وما زالت لم تعثر على بطاقتي الشخصية، ترى من أخذها؟ ربما وقعت منها في إحدى سيارات الأجرة، أو ربما في أحد أركان البيت، فمتى تعثر عليها؟ إنه اليوم الأول في امتحانات العام الدراسي، تدعو الله بداخلها أن يمر هذا الاختبار على خير، لقد أستعدت له جيدًا، ولكن ذلك الخوف من الامتحانات مرتبط بها منذ أن كانت في المرحلة الإبتدائية، ظنت أنها ستتخلص منه في المرحلة الجامعية، ولكنه يبدو أنه تفاقم في داخلها، وما عادت قادرة على الخلاص، جلست في مكانها، تنتظر ورقة الأسئلة كمن ينتظر الموت، ترتل بعضًا من آيات الله لعلها تهدأ وتستكين، استلمت ورقة الأسئلة وكراسة الإجابة، وراحت في عالم آخر، انخرطت فيهما بلا توقف، تظن لو أنها تلفت لتفلت كل ما حفظته من ذاكرتها، فليلطف بها الله.

- كيف الحال، إيناس؟!

رفعت رأسها، لترى من يحادثها وما وجدت سواه، ذاك المُحاضِر من أين يـــأتي؟ وكيف يظهر؟ ومن سمح له بالدخول؟ بكل تأكيد مكانته في الكلية تسمح له بالدخول في أي مكان أراد، ولكن ترى كيف يظن بها من حولها من فتيات؟ لِـــمَ يخصـــها هـــي باهتمامه؟ و لِمَ يتخطى كل تلك الصفوف، وما يقف إلا عندها؟ تلفتت تنظر حولهـــا، فشعرت بعيون من حولها معلقة عليهما، ولا تعلم هل كان شعورًا صادقًا أم أنها أتوهم؟ عادت لتنظر إلى الأوراق في يديها، قائلة بصوت مضطرب كقلبها بداخلها:

- الحمد لله.

انتهى الامتحان على خير، فاقتربت منها صديقتها هامسة بطريقة تمثيلية محاولة تقليد نبرة صوته الدافئة:

- كيف الحال، إيناس؟

ضيقت بين حاجبيها، قائلة بتذمر:

- لستُ بحالة جيدة للمزاح.

فابتسمت الأخرى قائلة بحب:

- لو كنتُ مكانك لملأت الدنيا كلها مزاحًا.

فعقدت بين ذراعييها متسائلة بعدم فهم:

- و لِمَ ؟ هل حصلت على جائزة نوبل؟

فضربتها على كفها قائلة بغمزة:

- بل حصلت على قلب الأستاذ.

انتفضت في مكانها لتدافع عن نفسها مبررة:

- بكل تأكيد تهذى، وهل كل من أتى ليطمئن عليِّ تظنينه قد وقع في حبي؟ إنه لم يأت ليسأل عني إلا لأنه رآني من قبل أتخبط في امتحـــ...

لم تنتظر صديقتها لسماع المزيد، فهي لم تقتنع، ولا تخفي عنكم، فهـــي أيضًـــا لم تقتنع بكلمة واحدة مما تلفظت بها.

* * * *

تعمد أن يعود إلى المكتبة بعدما تعافى جرح يده تمامًا؛ ليتأكد إن كان سيتكرر الحدث نفسه أم ما الذي يمكن أن يحدث، ما زال لم يجد تفسيرًا مناسبًا لما رآه من قبل، حتى أنه لا يصدق أنه كان مستيقظًا من الأساس.

أنزوى في أحد أركان المكتبة، ليتكرر الشعور نفسه، حرارة الرباطـــة في جيبـــه تزداد، وما إن لامست مكان الجرح حتى تكرر ما رآه من قبل، لتظهر الحروف نفسها، ولكن بلغة غريبة لا يفهمها، يحاول تبرير ما يحدث ولكنه عاجز عن التفســـير ، وليتـــه قادر على قراءة ما يظهر، فربما يسهل عليه الأمر.

الآن فقط تأكد أنه لم يكن يهذى، تأكد أنه مستيقظٌ في كامل قواه العقلية، ويبدو أنه سيفقدها عن قريب إن لم يفسر له أحد حقيقة ما يرى، فكرة طرأت على عقله أراد التيقن منها، فأخرج منديلًا من جيبه ليعيده على موضع الجرح ذاته، وما حدث شـــيئًا! لِمَ تلك الحروف لا تظهر إلا في المكتبة؟ و لِمَ يشعر بحرارة تلك الرباطـــة في جيبـــه في المكان نفسه؟ و لِمَ تلك الرباطة بالتحديد؟ ترى ما السر وراءها؟ ومن خلـــف تلـــك

الحروف؟! رغم أنه على يقين بحقيقة ما رأى، إلا أنه ما زال لم يحزم أنه لا يعاني حالة نفسية، ولابد أن يُعرض على طبيب نفسي، فربما يعاني هلاوس بصرية أو ما شابه.

* * *

أسبوع آخر يمر، والامتحانات ثابتة على موقفها لا تمر، خرجت من امتحانها لا تكاد أن ترى أمامها من الإعياء، جسدها الهزيل لا يتحمل عبء تلك الضغوط، ورغم ذلك ما زالت تعافر، صوت يناديها من الخلف، التفتت إليه فوجدت شخصًا غريبًا لا تعرفه، ربما أحد زملائها في الكلية، أو أكبر منها سنًا، لا تعرف، ولكن ماذا يريد؟!

- أستاذ كريم يريدك في مكتبه.

كريم! ماذا تفعل؟ هل تهرع إليه أم تهرب منه؟ و لِمَ يهتم بها؟ هل ما قالته صديقتها من قبل كان صحيحًا؟ ابتسمت في داخلها سعادة، ولكنها أبدًا لن تظهرها له،، وما زالت لم تحسم قرار مقابلته بعد، أوشكت على الانسحاب رغم أنه ليس من صفاتها، ولكنها تذكرت ذاك السؤال الذي طرحه عليها من قبل، ولابد أن تطلعه بأنها توصلت لإجابته الصحيحة، حاولت أن تبث نفسها الثقة، فالأمر لا يحتاج إلى كل تلك الضجة في داخلها، وها هي تسير في اتجاه مكتبه، وكلما اقتربت كلما توترت.

طرقات مترددة على الباب ومضطربة كحال صاحبتها، لتسمع صوته يأذن لها بالدخول فتزداد اضطرابًا، ولا حل سوى الهروب، حاولت أن تجري بعيدًا عن مكتبه، لن تدخل ولن تسمح له أن يراها بتلك الصورة، فسمعته يناديها لتتسمر في مكانها، وتعود أدراجها في موقف لا تُحسد عليه، لم يسألها عن سبب تراجعها، يبدو أنه قد

عرفه جيدًا، بل أشار إليها بالدخول وراح ليغلق الباب، فالتفتت إليه قائلة بصوت حاد لا يناسب حالتها:

- دعه مفتوحًا لو سمحت.

ابتسم بداخله، فتلك الصفات المتناقضة فيها قلبت حياته رأسًا على عقب، ليقول مبتسمًا في نفسه:

- سمعًا وطاعة يا مولاتي.

أشار إليها بالجلوس، ثم تحرك ليجلس خلف مكتبه، وليتها تسمح له بالجلوس على الكرسي المقابل لها، ولكنه لن يضايقها، أطرقت برأسها أرضًا، فلاحظ أنها منذ أن عرفها لا تنظر إليه إلا بغتة ودون قصد منها، فضيق الآخر بين عينيه، متسائلًا عن سؤال يعرف إجابته:

- لِمَ لا تنظرين إليّ؟!

ما زالت محدقة أرضًا، وما زادها سؤاله سوى ارتباكٍ، ولكنها حاولت التماسك لتظهر إجابتها جامدة قاسية، وها هي ترد له السؤال معكوسًا:

- و لِمَ أنظر إليك؟!

أعجبته تلك المناقشة الحادة، تبدو عنيدة ولا ترضخ بسهولة، لذا سيجاريها ليرى إلى أين تنتهي، فعقد بين ذراعيه قائلًا بجدية:

- لأني أحدثك.

لتجيبه بسرعة واندفاع، وكأنها أعدت إجابتها مسبقًا:

- ولكنك لم تتحدث بعد.

يمكه أن يستمر ولكنه أشفق لحالها، فغير مسار الحديث متسائلًا:

- هل عرفتِ الإجابة الصحيحة؟

رفعت رأسها لتقول باندفاع متناسية أمر خجلها:

- مرحلة الكهولة.

هز الآخر رأسه قائلًا بابتسامة نصر ضايقتها:

- إجابة خاطئة.

مطت شفتيها أسفل نقابها بضيق، لتتابعه قائلة بتذمر:

- ولكني بحثت عنها في الكتب و.....

فقاطعها الآخر قائلًا بثقة:

- لن تجديها في الكتب.

وقبل أن تسأله عن المكان الصحيح الذي يجب أن تبحث فيه عن تلك الاجابة الخارقة، إذا به يخرج من درج مكتبه، علبة صغيرة مسطحة، تظن أنها رأت هيئتها من قبل، ولكنها مغلفة، لا تكشف ما وراءها، وها هو يمدها إليها قائلًا بابتسامة:

- نقاب بديل عن ذاك النقاب الذي ألقيت به في سلة المهملات.

اتسعت حدقة عينيها غير مصدقة، هل كانت تفكر بصوت عالٍ أمامه؟ أم أنه توقع أن النقاب بلا رباطة الجبين لن يصلح؟ أم أنه يراقبها؟ ولكنها ما زالت محتفظة به في دولابها، ولم تلقِ به في سلة المهملات! اندفعت من مكانها قائلة بتوتر وانفعال:

- آسفة، لن أستطيع.

لتتركه جامدًا في مكانه، ولا تعرف هل كان هذا التصرف صحيحًا أم أنها بالغت في أخطائها حتى أصبحت غير قادرة على عدها.

طيلة طريقها وهي تعاتب نفسها، ليست راضية عن فعلها، عادت وخزات ضميرها تؤنبها، صوت بداخلها يعاتبها بل يعنفها، لِمَ سمحت لنفسك بالذهاب إليه مرة أخرى؟ و لِمَ ذاك التناقض يعتري صفاتك؟ إن كنتِ لا تسمحين لنفسك بالنظر إليه خوفًا من الفتنة، فلِمَ قبلتِ بالحديث معه من الأساس؟ تختنق بداخلها، ندم ولكنه ما عاد يفيد، أقسمت بداخلها أنها لن تكرر الفعل نفسه ثانية، وذاك الأستاذ إن حاول التقرب منها مرة أخرى فلا يلومن إلا نفسه.

ما زال الآخر جامدًا في مكانه يفكر، هل تظنه من أولئك الشباب الذين يفتعلون الحيل للتقرب إلى الفتيات؟ هل تظنه مراهقًا طائشًا، إنه يغار عليها من نفسه، وما أراد وصلها سوى بالحلال، ربما كانت تلك مقدمة لعرض بداخله لا يريد التسرع فيه، يشعر أنها تحبه ولكن تلك الصغيرة متمردة لا تظهر شيئًا، ربما تحتمي بنقابها، تخفي مشاعرها خلفه، ولكنها تتخبط لرؤيته، ترتعد أمامه، تلك الأعراض نفسها التي تلازمه منذ أول يوم رآها فيه.

يتساءل في نفسه: لِمَ تلك الفتاة بالتحديد؟ الفتيات من حوله كثيرات، لقد أحبها حتى قبل أن يرى وجهها، وكأن في عينيها السحر، ذاك الحب أمره عجيب، لا يرتبط بالجمال، ولا يتعلق بالصفات، ولا يشترط المعرفة المسبقة والمواقف الكثيرة، وما زال لم تحسم له أسبابًا واضحة إلى الآن.

* * *

انتهت فترة الامتحانات، وما عادت تسمح لنفسها بتذكره، وما عـــاد يحـــاول التقرب إليها لئلا يضايقها، هناك خطوة لابد أن ينتهي منها أولًا، ثم يحسم أمره معهـــا، لقد أقسم في نفسه ألا تكون لغيره، وما زال على عهده معها، لابد أن يطمئن علـــى صحته النفسية أولًا، ذلك الموقف الذي تكرر مرتين في المكتبة يظنه هـــلاوس، بكـــل تأكيد إن قصه على أحد غير الطبيب النفسي فسيتهمه بالجنون والعته.

وها هو يجلس أمام الطبيب يقص عليه ما تكرر أمام عينيه مرتين، جرح قد تعافى، ورباطة في جيبه يشعر بحرارتها ما إن تلج قدمه تلك المكتبة، وحروف تنقش على كفـــه بالدماء، ثم تختفي بعدها وكأن شيئًا لم يكن، حتى تلك الدماء بعدها لا يظهر لها أثـــرًا، والطبيب يستمع إليه بإنصات، يسجل كل ما يسمعه بتركيز واهتمام، وبكل تأكيد لن يفسر ما سمعه سوى بحالة نفسية، فتلك الأساطير لا تُفسَّر بالعلم.

وبعد تحديد موعد متفق عليه مسبقًا، توجه الطبيب بصحبة كريم إلى المكتبة نفسها ليرى، رغم أنه لا يقتنع، لكن لابد أن يساير مريضه ليكون مطمئنًا معه. وصل كريم إلى المكتبة بصحبة الطبيب، شعر بحرارة الرباطة في جيبه، فأخرجها على الفور، لـــتلامس كفه، ويتكرر المشهد نفسه.

أشار كريم إلى الطبيب قائلًا بلهفة:

- أرأيت؟ هذا ما يحدث كل مرة.

ضيق الطبيب بين حاجبيه متسائلًا بعدم فهم:

- وما الذي يحدث؟

ما زال كريم يشير إلى مشهد لا أحد غيره يمكنه أن يراه ليقول مؤكدًا:

- تلك الدماء والحروف، ألا تراها؟!

أخرج الطبيب نظاراته من جيبه ليرتديها، ثم اقترب من كف كريم يتفحصه، ليقول بدهشة:

- لا أرى شيئًا، سيد كريم.

تلك النظرة في عين الطبيب والثقة التي يتحدث بها، أكدت له أنه يعاني خللًا نفسيًا، ليرتمي على أقرب كرسي له، دافنًا رأسه بين كفيه، ولا تعليق يُذكر.

وعلى بُعد أمتار هناك شخص ما يترقب الموقف من بعيد، كاد أن يقترب ولكنه تحسس وجهه، فتذكر تلك اللكمة التي صوبها إليه من قبل، فقرر ألا يفعل، فكرامته لن تسمح له.

* * *

إنه آخر يوم في الامتحانات، خرجت تتنزه مع صديقتها لبعض الوقت، ولابد من المكتبة تودعها إلى أن تعود إليها بعد أن تنتهي فترة الإجازة على خير. قطعت لصديقتها تذكرة، فهي ليست مشتركة في عضوية المكتبة، ثم دلفت على درجات السلم تعدو إليها وخلفها صديقتها، وبعد خمس دقائق تقريبا سمعت صوتًا يناديها باسمها، فرفعت بصرها تنظر إليه ليصيبها الذهول، كيف عرف هذا الأصلع اسمها؟ بكل تأكيد عثر على بطاقتها الشخصية، و لِمَ ينظر إليها هكذا؟ نظرات حمقاء كصاحبها، تبًا له

ولبروده، هكذا قالت في نفسها، ولكنها حاولت التماسك إلى أن ترى ما الذي يريده؟! جلس الآخر قبالتها، ليخرج من جيبه بطاقتها الشخصية قائلًا بابتسامة:

- رفضت التعرف عليّ فعرفني القدر بك.

ألقت نظرة سريعة على صديقتها، لا تفهم لِمَ يتحدث معها بتلك الأريحية وكأنه يعرفها من قبل، فتابع الآخر قائلًا:

- لقد كنت دائمًا ما أراقبك تتزوين في أحد الزوايا، ولا تفعلين شيئًا سوى القراءة؟

يا لك من أحمق كبير! وهل يأتي الناس إلى المكتبة لغير القراءة؟ ولكن لِمَ يراقبها؟ وما الذي لفت انتباهه إلى أنثى متلحفة في سوادها؟ سحبت البطاقة من يديه بضيق، ستتقيأ في وجهه إن لم يبتعد، لا تحب ذلك النوع من التملق الساذج، وهل يعرفها ليتحدث معها من الأساس؟ فليعطها بطاقتها ويمضي من حيث أتى، شكرته على مضض، ثم عادت تنظر إلى كتابها كأنها لا تراه، لينهض الآخر قائلًا بابتسامة:

- سنلتقي قريبًا إن شاء الله.

أخرجت لسانها من أسفل نقابها كما الأطفال، لتقول بتذمر:

- في الجحيم.

عاد إلى غرفته موهومًا لا يرى أمامه من أثر الصدمة، لقد أكد له الطبيب أنه يعاني مرضًا نفسيًا حتى فقد الثقة في كل شيء، جلس يفكر في كل ما مر عليه في حياته، هل هو مُحاضِر في الكلية له مكانته بين الناس أم أنه يتوهم؟ هل هناك إيناس يحبها أم أنها

مجرد نسيج من خياله؟ هل التقى بها من قبل أم أنه كان نائمًا يحلم؟ هل هو كريم أم أنه شخص آخر لا يعرفه؟ هل هو حي أم ميت؟

دفن رأسه بين كفيه يعتصرها بقوة، تشتت لأبعد الحدود، وشعور لم يراوده من قبل، كيف يرى أشياء لا يراها أحد غيره، حتى أنه بات يشك في زيارته للطبيب من الأساس!

دلفت أمه إلى غرفته لتخبره بأن الغداء ينتظره في الخارج، فوجدته يتخبط في حيرته، وحالته يرثي لها القلب، أسرعت تعدو إليه لتجلس قبالته على طرف السرير تشد على كفه قائلة بقلق:

- ما بك، كريم؟ أصابك مكروهًا؟

كريم! هل نادته أمه بهذا الاسم أم أنه يتهيأ؟ وهل هذه أمه من الأساس؟ رفع رأسه لينظر إليها من خلف عيون محمرة شبه ناعسة، وهو يقول بتخبط وحيرة:

- من أنا؟!

ضربت أمه براحة يدها على صدرها في ذهول قائلة بفزع:

- بسم الله الحفيظ.

ثم اقتربت منه تتحسس جبينه المتصبب عرقًا، بكل تأكيد حرارته مرتفعة، وما شعرت سوى ببرودة تسري في جسده، أي تناقض هذا؟! برودة وعرق؟ ربما لم ينم جيدًا، أو ربما أصابته صدمة أو صعقة إنسانية، فتلك العيون المحمرة لا تبشر بخير.

مسحت على رأسه بقلق، وهي تقول:

- ما بك، حبيبي؟

انتفض الآخر قائلًا بغضب:

- فلتجيبي عن سؤالي أولًا، من أنا؟!

أصابها الذعر من هيئته، يبدو ضعيفًا ولكنه كالوحش، هل فقد عقله؟ كادت تبكي لهيئته، ابنها الذي ذرفت الدماء لأجل أن تراه ذو مكانة عالية بين الناس، ها هو يترنح في جنونه، وكأنه مسحور، مسحور! و لِمَ لا؟ لابد أن حساده كثر، وكثيرون حوله ممن يغارون منه، ولابد من حل جذري، اقتربت منه تربت على كتفه بحنان، قائلة بهدوء:

- أنت كريم ابني.

تسايره إلى أن تبحث له عن علاج، سحبته من ذراعه برفق، لينام على سريره، لم يمتنع ولم يحاول، فما عاد قادرًا على المقاومة، ثم سحبت الغطاء عليه، لتطبع قبلة حانية على جبينه، والدموع في زوايا عينيها تكفي لتعبر عن قلب يعتصره الألم بداخلها، فلعله يروح في سُبات عميق ويستيقظ وكأن شيئًا لم يكن.

* * *

إجازة لا يجوز عليها سوى الرحمة، لم تستمتع سوى بيوم أو يومين لا أكثر، لتنقلب بعدها حياتها رأسًا على عقب، وكأن الفرح كان يودعها، طابعًا على جبينها قبلة الوداع، تم عقد قران أختها على ذاك العريس الذي تقدم لخطبتها من قبل، وحمدًا لله أن الله أخلفها في مصيبتها وعوضها خيرًا منها، فرق شاسع بين هذا وذاك، الزوج الصالح رزق، قطعة من الجنة ينعم به الله على من يشاء من عباده ويرضي، إنسان

يتفهمها ويحترم مشاعرها، يحفظها في نفسه، يقدر قيمتها، يبث فيها الثقة بنفسها، تشعر معه بالأمان لا بالحرمان، تشعر معه بالكمال لا بالنقص، يطبطب على قلبها لا يضرب على رأسها بمطارق من نار، وقد كان.

ولأن الحياة لا تسير على وتيرة واحدة، ولأن دوام الحال من المحال، ولأن المعنى لا معنى له إن لم يكن له نقيض، فلابد من بعض الابتلاءات لندرك قيمة النعم، تدهورت صحة والدها، وما عاد قادرًا على العمل، وسواء تدهورت أو لم تدهور، فما بقي سوى القليل ليصل إلى سن التقاعد، لزم الفراش، وليته يفصح عما يؤلمه، لا يريد أن يكون ثقيلًا على أحد، يعلم حال بيته، فماذا لو شكى وبكى؟ وماذا لو تأوه وتوجع؟ زمن يداوي مرضاه بالمال، وأيام لا تقدر سوى الغني، إن أراد البحث عن طبيب، فسيكلفه الأمر كثيرًا، لذا فليعد ما تبقى لديه من أيام، فالأمر لا يستحق كل تلك الضجة. هكذا فكر، وهكذا يقضي باقي أيامه، ينظرإلى أبنائه بعيون مودعة، قلق عليهم من زمن لا يرحم أحدًا، فليتولهم الله برحمته، اقترب يوسف من أبيه يداعبه ويمازحه كما المعتاد، فتحركت إيناس في اتجاه قائلة بضحكات حاولت كتمها لتبدو أكثر جدية:

- أنت يا آخر العنقود!

رمقها بنظرة غاضبة، واضعًا كفيه في جنبيه بهيئة تجبر من يراه على الضحك قائلًا:

- آخر العنقود أفضل من أوسطه.

ثم التفت إلى أبيه المتكئ بظهره على وسادته، قائلًا:

- أليس كذلك أبي؟!

وقفت إيناس، لتقلده بنظراته وحركاته قائلة:

- ليس صحيحًا، آخر العنقود مذاقه حامض، بينما أوسطه حلو ولذيذ.

تدخلت خديجة لتغمزها قائلة:

- وماذا عن أوله، آنسة إيناس؟!

لتجيبها أمها قائلة بحب:

- السكر كله، خديجة.

رمقتها إيناس بضيق مصطنع، لتمط شفتيها بطريقة تمثيلية، قائلة:

- يبدو أننا في قعر الإناء يا يوسف.

ليجيبها يوسف قائلًا بحروفه المتساقط أغلبها:

- أنتِ القعر نفسه، أختي.

لينفجروا جميعًا ضاحكين، وإيناس ترمقه بغيظ محاولة كبت ضحكاتها بداخلها، فذاك الصغير المتمرد دائمًا ما يقصف جبهتها بكلمات غير متوقعة.

* * *

استيقظ من نومه، والشعور نفسه ملتصق فيه، وكأنه وقع في بؤرته، يسيطر عليه سيطرة كاملة، وليته قادر على التخلص منه، صداع يدغدغ رأسه وألم لا يُحتمل، تلك الأعراض لم تصبه إلا بعد زيارة الطبيب، ليته ما زاره، ليته ظل معلقًا بين الشك واليقين، بين الواقع والخيال، فليس كل وصول إلى الحقيقة مريحًا، ولكن لابد أن يعود إلى الطبيب نفسه، لقد تورط في مرضه، هل سيحيا باقي عمره مختلًا عقليًا؟ ولكنه ليس

مجنونًا، هناك حلقات مفقودة ولابد أن يصل إليها، فإن كان العلم عاجز عن التفسير، فلابد أن يتولى أمر نفسه، ولا غنى عن مساعدة الطبيب.

نهض من مكانه يشعله الحماس، توجه إلى الحمام ليترك الماء الدافيء ينسدل على جسده، يتوغل في رأسه فيمحو عنها كل شوائب عالقة بها، توضأ ليصلي، وها هو يستعد للخروج، دخلت أمه لتطمئن عليه، طيلة ليلها وهي لم تنم، تفكر في حل لابنها إن استمرت حالته بتلك الصورة، فوجدته يبتسم ويتعامل كأن شيئًا لم يحدث بالأمس، وكأنه لا يذكر من الأساس، لم تحاول أن تسأله، ولن تعرض عليه الأمر ثانية، فلعله يرحل بلا عودة.

- ألن تتناول فطورك، كريم؟!

التفت إليها ليسحبها من يدها قائلًا بحماس أثار الذهول بداخلها:

- بكل تأكيد.

* * *

ارتمت على سريرها بضيق، رغم أنها تعنف نفسها لئلا تذكره، إلا أنها عاجزة عن الخلاص منه، تراه ماثلًا أمامها في كل مكان، لا تعلم لِمَ علق بها، و لِمَ هو من بين رجال العالم أجمعين؟ ما زالت تفكر وتفكر، إلى أن غلبتها عيناها فنامت، لم يمضِ سوى عشر دقائق، لتستيقظ من نومها فزعة كمن لدغها عقرب، فنهضت أختها مسرعة تمد إليها بكوب من الماء، قائلة:

- بسم الله الرحمن الرحيم، خير إيناس.

تلهث بضيق، صدرها يعلو ويهبط بلا توقف لتقول:

- حلم غريب.

أوشكت أن تقص على أختها ما رأت، لتسمع صوت صراخ أمها في الخارج، فآخر العنقود قد ارتطم رأسه بالأرض، لتسيل منها الدماء بلا توقف.

* * *

تلك القصيرة المتمردة أسرت قلبه، لمح صورتها في بطاقتها الشخصية ليست واضحة المعالم، ولكنها أعجبته، منذ فترة طويلة وهو يراقبها عن بُعد، وليتها تعلم أنه زميل لها في الكلية نفسها، ولكنه يكبرها بسبع سنوات، هاني أبو المجد، شاب من عائلة فاحشة الثراء، هيئته المتواضعة تظهر خلاف ذلك، وطريقته الغريبة تجعل من يراه لا يطمئن إليه، كثيرًا ما يمازحه أصدقائه قائلين:

- إن مشطت حاجبيك للوراء، ليصلا برأسك الأصلع، فربما ينصلح حالك.

لا يضايقه صلعه على الإطلاق، يراه علامة مميزة ينفرد بها عن جميع من حوله من الشباب، اختلق موقف القلم ليتقرب إليها، ولكنها ليست بتلك السهولة، لا يستهويه القراءة كثيرًا، ولكنه أحبها لحبها لها، لا يعلم لِمَ هي الوحيدة من أسرته من بين كل الفتيات من حوله؟ رغم أن كثيرات من يتمنون له الرضا، ولكنه لا يرضى بسواها، من تلك التي تسمع عن هاني أبو المجد وثروته ثم تفكر في رفضه؟ يفتقر إلى شعر الرأس، ولكن تروته الكثيفة عوضته بكل تأكيد.

سعد كثيرًا حينما رآها تنهض متناسية أمر بطاقتها الشخصية، عرف عنها كل شيء كبيرًا كان أم صغيرًا، لم يترك أحد يعرفها إلا وسأله عنها، وما زاده سؤاله عنها سوى حبٍ وتعلقٍ، يعلم بحالتها الاقتصادية المتدهورة، يعرف بإصابة أخيها، وليته اكتفى بإصابته، لقد اكتشف الأطباء أنه يعاني ورمًا، ولكنهم ما زالوا لم يتأكدوا من حقيقة الأمر، بلا ريب تحتاجه أو ربما تحتاج لماله، لذا سيعمل على هذا الوتر، فربما يصيب قلبها بحبه.

* * *

عاد إلى الطبيب نفسه، بكل تأكيد لن يبحث عن طبيب آخر، فكفى أنه كشف سره لواحد، وليته ما فعل، هل يستطيع هذا الطبيب علاجه؟ ما فسر حالاته سوى بهلاوس بصرية، و لكن ما سببها؟ تاريخه العائلي لا يحوي مرضى نفسيين، ربما نقص في أحد الهرمونات، ربما خلل في أحد المواد في رأسه، ربما أسلاك دماغه احترقت، سيفقد عقله إن لم يجبه أحد، ولكن مهلًا، وهل يمتلك عقلًا من الأساس؟!

صافح الطبيب مبتسمًا، ترى كيف ينظر إليه؟ هل يراه مجنونًا؟ ولكنه يعامله باحترام، و لِمَ هو يشغل نفسه بنظرات الناس إليه؟ فليركز في نفسه، لعله يجد حلًا ينتشله من تلك الورطة التي لا يعلم كيف انغرست قدماه فيها، أشار إليه الطبيب، ليجلس في الجهة المقابلة أمامه، متسائلًا:

- كيف الحال، سيد كريم؟

أطرق برأسه أرضًا يفكر، يبدو سؤالًا سهلًا، ولكن ما من إجابة تصف حالته المشـــتتة، وما من رد سوى:

- لست بخير على الإطلاق.

نهض الطبيب من مكانه مستندًا بيده على المكتب ليجلس قبالته متسائلًا:

- هل عانيت أعراضًا مشابهة من قبل؟

فأومأ الآخر برأسه بأن لا، فتابع الطبيب متسائلًا:

- كيف ظهرت تلك الأعراض؟!

قص عليه كريم يوم أن تشاجر مع ذاك الشاب لأجلها، والذي ما زال لا يعلـــم ما علاقته بها، ومن بعدها ظل هذا الجرح ككل جرح يستغرق بعضًا من الوقت ليلتئم، ربما استمر طويلًا لبعض الوقت، ولكن في نهاية الأمر تعافى تاركًا أثرًا ضئيلًا في كفه، وما رأى تلك الأعراض سوى في المكتبة، ولا يفهم ما الصلة بينهما، ما زال الطبيب يستمع إليه بإنصات، إلى أن انتهى الآخر، فأشار إليه قائلًا بحزم:

- لابد من عمل أشعة على الدماغ؛ لنرى.

فتساءل كريم بوجه محتقن الدماء في عروقه:

- وماذا لو كنت أعاني خللًا؟

ابتسم له الطبيب مطمئنًا، ليقول:

- دعنا نتأكد أولًا.

* * *

أب مستلقٍ على ظهره في غرفته بلا حول ولا قوة، وأم تلهث خلف صغيرها في المستشفيات، وفتاتان تتبادلان الأدوار، اليوم خرجت إيناس مع أمها، لتبقى خديجة بصحبة والدها تتحسر على حال ما وصلوا إليه، وقلب بداخلها يؤلمها على أب أوشك على الفناء، وأخ لا أحد يعلم له مصيرًا.

طرقات على الباب تناديها، تحركت من مكانها تعدو إليه، ربما كان خطيبها أتى ليتفقد حاله، وما وجدت سوى شاب غريب في هيئته جعلها تتراجع إلى الخلف في ذهول، ترى من هذا؟ ابتسم الآخر في هدوء قائلًا:

- هل تسمحين لي بمقابلة السيد الوالد؟!

أشارت إليه بالدخول، وما زالت علامات الذهول تكسو وجهها، ولكنها رجحت أن يكون زميلًا لوالدها في العمل، رغم فارق السن بينهما، تحرك ذاك الضيف إلى غرفة والدها، ملقيًا عليه السلام، ليرد له الآخر السلام نفسه، منتظرًا منه أن يكشف عن هويته.

- هاني أبو المجد.

رحب الآخر به مبتسمًا بضعف، وما زال لا يعرف ماذا بعد هاني أبو المجد.

- أعمل في إحدى الشركات التي يمتلكها والدي، تخرجت منذ سنوات من كلية التربية قسم تاريخ، جامعة المنصورة.

فتدخل الآخر قائلًا بعفوية:

- مثل إيناس ابنتي، ولكنها لم تنه دراستها بعد.

يبدو أن ذاك الأب قطع عليه نصف الطريق، ليفتحه أمامه يعبره بسلام، فاعتـــدل الأخر في جلسته يعدل ياقة قميصه، قائلًا بابتسامة:

- وهذا ما أتيت لأجله.

رمقه الآخر بنظرة تفحصية، ما زال يحتاج إلى مزيد من التوضيح، فأردف هاني قائلًا:

- أتيت لأتقدم لخطبة آنسة إيناس.

ضيق الأب بين حاجبيه، متسائلًا:

- وهل تعرفها؟!

هز الآخر رأسه قائلًا:

- لا، ولكن سمعتها الطيبة تسبقها.

ابتسم الآخر له شاكرًا على تلك الكلمات اللطيفة، فتابع الآخر قائلًا:

- أعدك إن قبلت بي، فسأفرش لها الأرض وردًا، أمتلك ثروة تقدر بالملايين، و..

فقاطعه الأب قائلًا:

- لا يهمني سوى أن تكون ابنتي راضية.

فتساءل هاني بلهفة:

- إذًا وما رأيك؟

ليبتسم الأب قائلًا بصوت ضعيف:

- لا رأي لي قبل رأيها.

ودعه هاني داعيًا الله له بالشفاء، على وعد بلقاء قريب، يفكر كيف سيكون موقفها منه، يشعر أنه ضايقها في موقفيه السابقين، فترى هل تقبله؟!

* * *

مر أسبوع ليتغير معه الكثير والكثير، أظهرت الآشعة أنه لا يعاني أي خلل من أي نوع، لا تقصير في الهرمونات، ولا قصور في المخ، ولا زلل في الناقلات العصبية، إذًا ما الأمر؟

عاد ليختلي بنفسه ثانية، يحدِّث نفسه كثيرًا إلى أن لاحظته أمه، أقسمت بداخلها أنها لن تظل عاقدة ذراعيها أمام صدرها تندب حظها، وابنها أمام عينيها يضيع منها، لقد شحب لونه، أرق نومه، لا يأكل ولا يشرب، ولا يتكلم مع أحد آخر غير نفسه، أرسلت إلى أحد الدجالين الذين يدّعون العلم، وما كان من كريم إلى أن صرخ في وجوههم جميعًا ليرحلوا موقنين بأنه مجنون، لا يصدق أن أمه تؤمن بتلك الخزعبلات من الدجل والشعوذة، هل فقدت عقلها هي الأخرى؟ أم ضاقت أمامها السبل ولا حيلة غير ذلك؟!

اقتربت منه بحذر، وكأنها خائفة، هل يبدو مجنونًا لهذا الحد حتى أصبح الجميع يخشون الاقتراب منه؟ لا ينكر، فعصبيته أصبحت لا تُطاق، ينظر إلى نفسه في المرآة، فلا يصدق أنه هو، وكأنه تبدل أو تغير، طوقته أمه بذراعها تمسح على شعره، وما زالت حذرة، كمن يروض حيوانًا مفترسًا، لتقول برفق:

- اسمع، كريم.

ما زال الآخر جامدًا في مكانه يحملق في نقطة لا يراها، صدره يعلو ويهبط، لقد غضب اليوم كثيرًا، وعلا صوته كثيرًا، وكأنه كان ينتظر من يضايقه ليفرغ فيه كل طاقاته السلبية المختزنة بداخله:

- هناك شيخ جليل، لا علاقة له بالسحر، فقط يقرأ عليك آيات من القرآن لعلك تهدأ، بني.

وهل أحتاج لأحد ليقرأ على رأسي قرآنًا؟ المصحف في حوذتي أرتل من آياته ما أردت كل يوم، هاتفي يحوي القرآن كاملًا وبجميع الأصوات، يمكنني أن أستمع لمن شئت، ولكن لن أجادل أمامها طويلًا، فليأتِ من يأتي فما عدتُ أبالي.

* * *

دلفت إلى غرفة والدها لتطمئن عليه، تمسح عن وجهها أثر النوم لعلها تفيق، لقد تأخرت اليوم في نومها، الآن فقط شعرت بتلك المسئولية التي كانت تحملها والدها وحدها على عاتقها، لهذا كانت تعاتبها حينما تختلي بنفسها لساعات في غرفتها دون سؤال عنها، الآن فقط فهمت أن الأمر ليس باليسير، اقتربت من أبيها لتجده نائمًا، لتبتسم قائلة بمزاح:

- يبدو أنه لست وحدي كسولة في هذا البيت، أبي.

لامست جبينه بكفها لتتأكد أن حرارته قد انخفضت، فوجدته باردًا وكأنه قضى ليلته في غرفة خاوية بلا جدران، شعرت بقبضة في قلبها لا تعرف مصدرها، وما زالت أفعالها هادئة لا يبدو عليها أثرًا للاضطراب، فأمسكت بيده تهزه برفق، وما من مجيب.

عاودت الفعل نفسه مرة وثانية وثالثة، محاولة الاحتفاظ بثباتها لئلا تصرخ، وما من ردة فعل مناسبة لموقفها سوى الصراخ بل ما هو أكبر، جسدها ينتفض بـــلا وعـــي، ودموعها تنسدل بلا حذر، تتحرك في أرجاء البيت كمن مسه طائف من الجن، تكـــتم فمها بكفها لئلا يلتم الجيران، حتى ارتمت على أقرب كرسي لها تفكر، هل تتصل بأمها في المستشفى؟ ولكنها لن تحتمل خبرًا كهذا، كفاها ما هي فيه، هل تخبر إيناس؟ ولكنها بصحبة والدتها ولو علمت فسينفضح الأمر بصورة قد تصيب والدتها بسكتة قلبيـــة، لابد من شخص عاقل يمهد لها الأمر، يضمها إلى صدرها قبل أن يلقي على مســـامعها بخبر انكسار ظهرها، ولكن هي من تحتاج إلى تلك الضمة، وما من أحد بعد الله ســـوى زوجها.

استندت على ما تبقى لديها من قوة، تحمد الله في داخلها أنها هي من وضـــعت في موقف كهذا وليست أختها، بكل تأكيد لو رأت إيناس أباها ممددًا أمامها بلا حول ولا قوة لماتت بجواره، فليصبِّر الله قلبها، تشعر وكأن شيئًا تمزق بداخلها، وها هـــي قـــد أمسكت بسماعة الهاتف بيد مرتعدة تضغط على أزرار لا تراه من خلف دموعها حتى أتاها صوته لتنطلق شهقاتها قائلة بتأوه:

- فلتأتِ إليّ الآن.

****

رقاب تتطاير من على أجساد أصحابها بالسيوف، رجال غلاظ ملثمون لا يظهر لهم ملامح، أصوات صراخ وعويل، خوذات ودروع، جيوش جرارة كما الجراد، ربما

هكسوس أو مغول، رجل غارق في دمائه تضمه إحداهن باكية بحرقة، تظهر من بعيد كما الظل، وكأنها تأبى الكشف عن نفسها.

انتفضت من مكانها تبكي بحرقة، وهل تحتاج إلى مزيد من الموتى؟ أما كفاها موت والدها، وأخيها الذي ما زالت مخالب الموت تحاول تخطفه من بين أيديهم؟ حلم يتكرر معها كلما طرف لها جفن حتى أصبحت تكره كل شيء حولها، فإن كان النوم نفسه لا يريحها، فأين تجد راحتها؟ هرعت إلى مصلاها تبكي بتأوه، ضعيفة الحيلة، هزيلة الجسد، فقيرة المال، يتيمة الأب، فمتى الموت يختارها؟

هاني أبو المجد، شاب ثري يمتلك الملايين، لا تعرفه، وما زال ينتظر موافقتها، أخبرها أبيها قبل موته أنه يبدو مناسبًا، متعلمًا، يعمل، يتمنى لها الرضا، وما تحتاج سوى ماله، ليست طماعة جشعة، ولكن لا حل آخر، أخاها بين الحياة والموت، قد أوشكت مخالب الموت على تخطفه هو الآخر، ولابد من عيادة خاصة بأطباء وإمكانيات تسعفه، تلك المستشفيات الحكومية لا تسمن ولا تغني من جوع، لقد أخبرها الأطباء بأن حالة أخيها إن استمرت على هذا الوضع من الغموض، فربما يحتاج للسفر، ولا علاج له يقدمونه

أفصحوا عن تلك الكلمات في وجوههم، سكاكين انطلقت في صدورهم جميعًا، والحل في يدها هي، ولكن ذاك المُحاضِر! إن قبلت بهذا الشاب، فإنها بذلك قد قطعت كل صلة بينها وبينه، لقد أخبرتها صديقتها من قبل أنه يحبها، حتى أنها لمحت الشعور نفسه في نبرة صوته، ولكن إن كان يحبها، فلِمَ لم يبحث عنها؟ لِمَ لم يتقدم لخطبتها؟ هل كان جادًا، أم أنه يستمتع بوقته لا أكثر؟

انتفضت من مكانها بضعف، حياة أخيها في خطر، ولا وقت لتلك الرومانسية الحمقاء، وهل حب ذاك الغريب في قلبها أقوى من حبها لأخيها؟ ربما لا يقل عنه، ولكنها لن تضحي بأخيها لأجل أحد، أيًا من كان، لقد ترك هذا الرجل رقم هاتفها مع أختها لتتصل به تخبره برأيها، أشارت لأختها بأن تهاتفه لتخبره بموافقتها مسبقًا، ولكن لابد أن تراه، لتخبره بحاجتها للمال.

لم تكذِّب أختها خبرًا، ترى الظروف من حولها مشتتة، تنظر إلى أمها منكسرة في صورة لم ترها من قبل، ربما تحاول أن تظهر القوة، ولكنها عاجزة عن إخفاء ضعفها في عينيها، تلك الدموع التي لا يمكن لأحد كبتها، وإن حاول أحلت مكانها كتلة من الدماء المتحجرة وكأن شعلة من النار أضاءت فيها، لابد من شخص يدفع الثمن، ثم أنها تراه جيدًا، وما كان عيبه سوى أنه أتى في تلك الظروف الحالكة، وها هو الضيف يجلس في غرفة الضيوف متلهفًا لرؤيتها، سعيدًا لقبولها، ارتدى حلة سوداء لامعة؛ لتناسب هيئة العريس، وما زال جالسًا في مكانه ينتظر.

تلحفت في سوادها، سواد من الداخل والخارج، حزن يطغى على كل جوانبها، وما زادها رؤية ذاك الأحمق سوى سوادٍ، لم تتوقع للحظة واحدة أن يكون هاني أبو المجد ذو الثروة الكبيرة هو نفسه ذاك المعتوه، تسمرت في مكانها لا تصدق، والآخر واقف أمامها يبتسم، لتشير إليه بسبابتها قائلة بذهول:

- أنت!

اتسعت ابتسامته، ليتفحص بذلته بإعجاب قائلًا:

- ما رأيك في تلك المفاجأة؟!

أي رأي؟! وهل يظنها مفاجأة، فليسمها كارثة، صدمة، صاعق كهربائي...

- كيف حالك، آنسة إيناس؟!

أي حال؟! أقسم أنني ما عدت قادرة على الوقوف، ضاقت نفسي، واسودت الدنيا في عيني حتى كدت أبكي، ولحسن حظه أنه لا يرى وجهي الممتعض لرؤيته، اقترب الآخر منها قائلًا بابتسامة:

- أعلم أنكِ متوترة بعض الشيء، حينما تعرفينني جيدًا سيزول عنك كل توتر.

وهل سأتقرب منك لأعرفك جيدًا؟! ابتلعت كلماتها في حلقها على عجل، ما زالت تحتاجه، ولا حل آخر، لابد أن تسعف أخيها، وإلا ما سامحت نفسها أبدًا، أشارت إليه بالجلوس على مضض، قائلة:

- أوافق، ولكن بشرط.

فضيق الآخر بين حاجبيه الكثيفين متسائلًا باهتمام:

- وما هو؟!

أطرقت برأسها أرضًا، فما تعودت أن تمد يدها لأحد، وما تعودت الخضوع سوى لله، ولكن فليعتبره مهرًا:

- تتولى حالة أخي بكل متطلباتها.

* * *

طلبت منه أن يصطحبها بسيارته إلى المستشفى لتراه أمها، وكأنها قد لغت قلبها، دهسته بعنف ماضية بلا تفكير، فمنذ متى وتلك الحياة تقدر مشاعر البشر؟ أم تستند

بذقنها على كفها في مرار لتزيدها رؤية ابنتها مع هذا الشاب مر على مرها، إنها ابنتها فكيف لها ألا تدرك تلك النظرة الخائفة في عينيها؟ اقترب هاني منها يمد إليها يده مصافحًا ليقول:

- شفاه الله، ثبتك، أمي.

هزت رأسها محاولة التبسم، تؤمن على دعائه، فتدخلت إيناس قائلة بصوت مبحوح من كثرة نحيبها:

- لقد اتفقنا أنا وهاني على كل شيء، أمي.

وقبل أن تنحدر الدموع من عينيها، تداركت الموقف مسرعة في اتجاهه أخيها تقبله بين عينيه، وكأنها تخفي ألمها في صدره، تشعر وكأنها أبوها بعدما فقد أباها، تملس على شعره بهدوء، تترجاه بداخلها أن بنهض، فما عادت تحتمل رؤيته ساكنًا، أشارت الأم إليه قائلة:

- لِمَ تقف سيد هاني؟ تفضل.

راح ليجلس على أقرب مقعد، وهو يقول:

- لقد أتيت فقط لأطمئن على صحة يوسف، ولتطمئن أنت على إيناس بصحبتي.

ألقت نظرة سريعة على ابنتها، فوجدتها لا تعبأ بشيء سوى بأخيها الممدد بجانبها، فالتفت إليه قائلًا بابتسامة لا توافقها:

- خير إن شاء الله.

ولكن قلب الأم غير مطمئن، تشعر بأن ابنتها قد ورطت نفسها في علاقة لا ترضاها، ولكن ما باليد حيلة سوى الدعاء، فإن كان خيرًا فليتتم لها الله على خير، وإن كان شرًا فليخلصها منه.

* * *

انتهت فترة الإجازة ولكن الأحزان لم تنته، ولن تنتهي إلا بشفاء أخيها، ورؤية ذاك السمج بعيدًا عن حياتها، يعلم أنها بحاجة إلى ماله، يستغل ضعفها، يفرض عليها أمورًا لا ترضيها، وها هو يطلب عقد قرانه عليه ليضمن أنها لن تتفلت من بين يديه بعد شفاء أخيها.

انعزلت في غرفتها، لا تخرج سوى للاطمئنان على أخيها في المستشفى، واستقبال ذاك الخطيب اللزج، لقد أكدت عليه من قبل أن يقلل من تلك الزيارات المكثفة، فما زال أجنبيًا عنها، ولكنه يكسر عينيها بالمال، يخضع أنفها بثروته، فكيف تطرده من بيتها وهو صاحب الفضل عليها وعلى حياة أخيها؟ يرن جرس هاتفها، ليعلن عن اتصال صديقتها، فأستأذنت من ذاك المتسلط لتجيبها، تتنفس بعمق بعدما ابتعدت عنه، لا تعلم لِمَ ذاك الشعور يخنقها كلما اقتربت منه؟ ضغطت على زر الرد ليأتيها صوت صديقتها متسائلًا:

- كيف حالكِ، إيناس؟!

كادت أن تبكي ولكنها حاولت التماسك، فهذا السؤال لا يثير بداخلها سوى شفقة على حالها، لتجيبها قائلة بصوت ضعيف:

- الحمد لله.

فتابعت الأخرى متسائلة بحزن:

- وكيف هو يوسف؟!

ما عادت قادرة على منع دموعها، لتقول بتأوه:

- ما زال في المستشفى، لم يحسم أمره بعد.

لتجيبها الأخرى بأسىً مشفقة لحالها:

- ستسير الأمور على خير إن شاء الله.

سكتت قليلًا، لتتابع قائلة:

- لا تحملي همًا، سأسجل لكِ المحاضرات إلى أن تأتي.

شكرت صديقتها بامتنان على وقوفها بجانبها في أزمتها، فنعم الصديقة هـــي، ثم عادت لتجلس مع خطيبها في الخارج.

- وماذا لو حدثتيها أمامي، هل بينكما أسرار؟

"لا أسرار ولا أخبار، و لِمَ تتدخل من الأساس؟ تبًا لك ولسماجتك."

رمقته بضيق ولم تعلق، بدت لها صفات كثيرة فيه لم تروقها أبدًا، ولكنها ما زالـــت على عهدها مع أخيها رغم كل شيء، ولن تتخلى عنه يومًا.

* * *

بدأت الدراسة الجامعية تنتعش من جديد، لابد أن يكون أكثر تركيزًا، يخشى أن يلاحظ أحد عليه شيئًا من الجنون، هل يقدم استقالته؟ ولكنه لن يفعل لأجلها، منذ أن علم بأنها إحدى طالباته، وما زاده ذلك سوى تمسكٍ بعلمه ومكانته، ولكن أين هي، لا

يراها، هل ما زالت لا تحضر؟ أم أنها تختبيء منه خلف تلك الحشود من الفتيات؟ حاول أن يعثر على صديقتها، هاتفها ولكن هاتفها مغلق، ليغمس هاتفه في جيبه بتأفف، ويخرج من المكان بأسره متجهًا ناحية المكتبة، فربما يحالفه الحظ، فيلتقي بها هناك، وصل إلى المكتبة، لم يدخلها أولًا، بل توجه إلى الجهة الخلفية منها، يبحث عنها ولا يجدها.

صعد درجات السلم يدعو الله في قلبه أن يلتقي بها، وما إن دلف إلى غرفة المكتبة، حتى شعر بحرارة الرباطة في جيبه، ولكنه أقسم ألا يستجيب لها، كفى تخبطًا وجنونًا، يسعى لينسى، فلِمَ تلك الرباطة لا تكف؟ ولولا أنها لها لأحرقها وتخلص منها للأبد، ولكن قلبه لم يطاوعه، منذ فترة طويلة وهو لم يذهب إلى الصالة الرياضية، ربما إن مارس القليل من التدريبات يتخلص من بعض من تلك الثقول.

وما إن وصل إلى المكان نفسه، حتى لمح من بين الشباب شابًا يعرفه جيدًا منذ زمن بعيد وهو لم يره، يمكنه أن يميزه من بين آلالاف، تذكر تلك اللكمة التي صوبها إلى وجهه يوم أن كان غاضبًا، لقد بحث عنه كثيرًا؛ ليعتذر منه، وها هي فرصته قد أتت، وما إن لمحه الآخر حتى أشاح بوجهه عنه متعمدًا، ما زال لم يغفر له ذلك الفعل، ولولا أنه قدر حالته وقتها لرد له الصاع صاعين، اقترب منه كريم متجاهلًا تعبيرات التجاهل على وجهه، ليقول مبتسمًا:

- كيف حالك، أستاذ هاني؟

رمقه الآخر بعدم اهتمام، ليقول:

- بخير.

ربت كريم على كتفه قائلًا:

- أعلم أنني كنت فظًا، ولكن أقسم أنني...

قاطعه الآخر قائلًا بابتسامة:

- لا عليك، سأعفو عنك، ولكن بشرط.

فابتسم كريم متسائلًا بتشكك:

- وما هو؟!

فضرب الآخر على كتفه قائلًا بابتسامة:

- أن تحضر حفل خطوبتي.

ضمه كريم قائلًا بسعادة:

- مبارك يا رجل، لكن ما العنوان؟!

* * *

اشترط ذاك الهمجي أن يقيم حفل خطوبة في إحدى القاعات الكبيرة، لم يقـــدِّر حالتها وظروفها التي تمر بها، لم يهتم بموت أبيها الذي لم يمر عليه سوى القليل، لم يحترم حالة أخيها الصحية، لم يقدِّر أي شيء، دهس على الجميع بحذائه، يعلم نقطة ضـــعفهم جميعًا، يظن أنه يُمنُّ على أخيها بالحياة، وينعم عليهم بقربه، صرخت وبكت وشكت ولا دمعة واحدة شفعت لها عنده، ليخبرها بكل أريحية قائلًا:

- أنا الابن الوحيد، ولابد أن أسعد أهل بيتي.

لتصرخ في وجهه بضيق فما عاد تحتمل بروده:

- وماذا عن أهلي؟ ألا يستحقون أن أقدِّر مشاعرهم وأحترمهم؟

ليرمقها الآخر بنظرة غير مبالية، وهو يودعها قائلًا:

- استعدي إيناس، فلا وقت لدي.

لا يهمه سوى مصالحه الشخصية، كشف القناع عن وجهه؟ ليس ساذجًا كما توقعت، وليس متواضعًا كهيئته، وليس شهمًا كما حاول أن يخدعهم جميعًا، ذئب دنئ لا تهمه سوى خسته، لتلقي بأقرب شيء أمامها وراه قائلًا بغيظ:

- فلتذهب إلى الجحيم.

بكل تأكيد ليست قادرة عن الإفصاح عن بغضها له، وبكل تأكيد هو على يقين أنها لا تطيق رؤيته، ولا تعلم كيف سمحت له كرامته أن يكمل ارتباطه بامرأة أوشكت على التقيؤ في وجهه من شدة بغضها له؟ هل يحبها؟ ولكن مثل هؤلاء لا يعي شيئًا عن الحب؟ ولو كان يحبها بصدق لاحترم مشاعرها ومشاعر أهلها، أخوها في المستشفى يترنح في مرضه ترافقه أمها، وها هي تستعد للتوجه إلى تلك القاعة الكبيرة تتشبث بذراع أختها ، ولا أحد في المكان تعرفه غيرها، لم تخبر أحدًا من صديقاتها، فليست سعيدة لتبحث عن أحد يشاركها.

تخلت عن ملابسها السوداء إكراهًا؛ لترتدي فستانًا ورديًا براقًا، وتسير في وسط جمع من الناس، ثم تجلس على كرسي مزخرف بالورود بجانب أبغض الناس إلى قلبها، وحمدًا لله أنه لم يجبرها لتنزع نقابها عن وجهها، يبدو أنه ما زال يمتلك بعضًا من صفات الرجال.

أرادت خديجة أن تقص على زوجها أمرها ليتدخل، ولكنها حذرتها ألا تفعل، وما عادت تحتاج إلى أحد، فكفي إذلالًا لهذا وذاك، تعلم أن زوجها طيب ولكنه ليس غنيًا، وطالما لا يمتلك المال، فلن يفعل شيئًا.

- لقد تغيرتِ، إيناس وأصبحت نظرتك ضيقة ككثير ممن حولك.

كلمات همست بها أختها بحسرة، ولا تدري على أي شيء تتحسر، فقد تكاثرت الهموم من حولها حتى أوشكت على الاختناق، وما كان من إيناس إلا أن استقبلت كلماتها باتسامة قائلة بتهكم:

- لأول مرة أدرك أن المال هو أساس كل شيء، بذاك المال بين يدي سفيه أصبحت كآلة قديمة تعمل بالإشارة عن بعد، يتحكم فيها هذا الخسيس بجانبي كلما أراد، لقد أخطأت حينما أظهرت له حاجتي للمال، ولكن هل كان هناك حل آخر؟

لم تجد أختها ردًا مناسبًا على كلماتها، فوقفت تتأمل الحشود أمامها، كل متلون بصبغات لا تظهر لأصحابها لونًا، تشعر بنظرة احتقار في أعينهم، وكأنها ليست مثلهم، تلك الوجوه من حولها لا تشبههم، تذكرت أمها المنتظرة في المستشفى بجوار أخيها، لقد أخبرتها بأن تهاتفها حينما تصل، فاقتربت من أختها الجالسة بجوار رجل لا تطيقه قائلة:

- سأهاتف أمي بعيدًا عن تلك الأصوات.

تركت أختها جامدة في مكانها، كآلة تعمل بالحجارة لا روح فيها تزهر ولا قلب ينبض بالحياة، لتقترب إحداهن منها مباركة، ويبدو أنها هناك كلمة عالقة في حلقها، وها هي أوشكت على لفظها لتتساءل بنظرة ونبرة لم تعجبها:

- لِمَ ترتدين النقاب –عزيزتي– في هذا اليوم؟

أطرقت برأسها أرضًا ولم تعلق، تعلم أنها ستسمع الكثير والكثير من التعليقات السخيفة ممن حولها سواء في وجهها أم من ورائها، ليتدارك هاني الموقف قائلًا بابتسامة خصها بها:

- أنا من أردت ذلك، خالتي.

ألقت عليهما نظرة سريعة ولم تعلق، رغم أنها لا تطيقه إلا أن ذلك التصرف منه أعجبها، ورغم ذلك ما زال قلبها مصرًا على موقفها منه ولن يتغير مهما حاول، فيكفيه تلك القيود التي فرضها عليها وهو أعلم الناس بحالها.

حاول أن يشغل نفسه عن تلك التساؤلات التي لا إجابة لها، لذي لا حل سوى أن يحضر ذاك الحفل الذي دعاه صديقه لأجله، لا يعلم إن كان صديقه حقًا، أم ما زالا في مرحلة التعارف، لا يهم، سيقضي سهرة جميلة، لعلها تشغله ولو لوقت قصير عن تلك الأفكار، إنه بحاجة إلى شحن عقله بليلة كتلك، فربما يعود إلى العمل من جديد، وصل إلى المكان الذي وصفه له صديقه، من أكبر قاعات الأفراح في المنصورة، ذاك الشاب أمره عجيب، لابد أن حفل كهذا كلفه الآلاف من الجنيهات، فمن أين حصل عليها؟!

دلف إلى داخل القاعة، فلمح عروسين من على بعد أمتار، اندهش لبعض الوقت، فتلك العروس ترتدي نقابًا، وما ذكرته سوى بالمتيم بها قلبه، راح يسرح بخياله، ماذا لو كانت هو وهي من يجلسان في المكان نفسه، تتشابك كفوفهما في دفء،

وتتلاقى عيونها في حب وأمان؟ ويا لها من أحلام وردية، كلون فستان العروس، اقترب من صديقه يباركه، متمنيًا له دوام السعادة والخير، هامسًا في أذنه قائلًا بابتسامة:

- هل عفوت عني الآن، أم ما زال هناك شروط؟

ليجيبه الآخر قائلًا بابتسامة:

- ليس قبل هدية العروس.

وهل ستفوته تفصيلة كتلك، لقد كان شرطًا آخر لقبول الصلح؟ أخرج من جيبه علبة صغيرة ليمد بها إلى العروس مبتسمًا، ودون أن ينظر إليها قائلًا:

- مبارك عليك.

انتفضت الأخرى في مكانها، حتى أجبرته على النظر إليها، ولكنها أشاحت بعينيها بعيدًا عنه بسرعة البرق، لتتخطف من يده العلبة، دون أن تتفوه بكلمة واحدة، قبضة أصابت قلبه، ولكن لا يعرف مصدرها، هل تلك العروس هي....؟ بكل تأكيد، لا، لابد أنه يهذى، وهل لا أحد يرتدي نقابًا غيرها؟ ثم أنه لم يرها يومًا سوى ترتدي سوادًا، وذاك الفستان لا يناسب شخصيتها أبدًا، تلك المواقف الكثيرة بينه وبينها، جعلته يتطرق إلى كل شيء عنها، حتى ذوقها في اقتناء أشيائها المفضلة.

* * *

انتهى الحفل على خير، لتعود إلى غرفتها ترتمي على سريرها باكية بحرقة، لقد حبست الدموع في عينيها كثيرًا حتى تورمت، لمحته بعينيها، حضر حفل خطوبتها من رجل آخر غيره، ولكن هل يعرف أنها هي؟ أم أنه لم يدرك الأمر؟ ودت لو استغاثت به ليحميها من ذاك المتسلط، ولكن مهلًا، ما الصلة بينهما؟ كيف يكونا صديقين ولا صفة

واحدة تجمعهما؟ ربما ليسا كذلك، ربما أحد أقاربه أو معارفه، وليته أخذها معه، لقد سحب روحها في يديه، خطف قلبها، ليرحل بعيدًا عنها، فكيف له ألا يعي ما ارتكبه من جرم في حقها؟

تذكرت تلك العلبة التي أهداها بها، فانتفضت من مكانها على عجل تفتحها بيد مرتجفة، لتقع عيناها على خاتم فضي لامع أصاب شفتيها ببسمة لا تناسب حزنها، عاد الآخر إلى غرفته يتخبط في حيرته، يتساءل في نفسه: لِمَ تلك العروس انتفضت لرؤيته؟ و لِمَ شعر برجفة في قلبه حينما لمح عينيها؟ حتى أنها لم تعطِ له الفرصة ليتأكد إن كانت.... انتفض من مكانه غاضبًا، ماذا لو كانت هي؟ حتى أنه لم يسأله عن اسمها، أمسك بهاتفه ليحادثه؟ فتذكر أنه لا يعرف له رقمًا، فما العمل؟

* * *

ما زالت الأيام تمر، وما زالت لا تأتي، يدخل مدرجه يتفحص كل من فيه، يفتش عنها بين الوجوه، ولو كانت بينهم لرآها، لِمَ لم تعد تأتي؟ أنهى المحاضرة على عجل، ليخرج هاتفه من جيبه متصلًا بتلك الصديقة، فلعلها تعرف عنها شيئًا، أخبرته أنها في الكلية، فأشار إليها أن تأتيه إلى مكتبه، وما هي إلا دقائق ليسمع طرقات على الباب، فانتفض من مكانه بلهفة مشيرًا إليها بالدخول على عجل، لمحت اللهفة في عينيه ولكنها تجاهلتها، ليشير إليها الآخر للجلوس، ثم يجلس قبالتها متسائلًا بلهفة، وما عاد يهمه إخفاء مشاعره، ولتفهم ما تفهم:

- أين إيناس، لِمَ لا تأتي؟!

أطرقت الأخرى برأسها قائلة عن قصد:

- ستتزوج قريبًا.

وكأن سكينًا انغرس في قلبه، لينتفض من مكانه قائلًا بغضب:

- ماذا تقولين؟!

وقفت الأخرى وها هي قد تأكدت من شكوكها لتقول بحنق:

- و لِمَ تضايقت؟!

ارتمى الآخر على الكرسي، يدفن رأسه بين كفيه قائلًا بصوت مختنق:

- لأني أحبها.

فاقتربت منه الأخرى قائلة باستنكار:

- وإن كنت تحبها، فلِمَ تخليت عنها؟

رفع إليها برأسه مشيرًا إلى صدره بسبابته، قائلًا:

- أنا؟

فتابعته الأخرى قائلة بضيق:

- نعم، أنت.

فاندفع من مكانه قائلًا بغضب والشرار يتطاير من عينيه:

- ولكنها لم تحبني يومًا.

لتقف الأخرى قبالته مضيقة بين حاجبيها، متسائلة:

- وكيف عرفت؟

أشاح بوجهه عنها لئلا ترى دمعة خانته، وهو يقول:

- لو أحبتني ما قبلت الزواج من غيري.

لتتدخل الأخرى قائلة:

- ولكنك لم تعرض عليها.....

فالتفت إليها مقاطعًا، وقد علا صوته:

- حتى لو لم أعرض عليها الزواج، رغم أنني كنت أنوي.

لمحت الدموع في عينيه، وليس بسهل أن ترى رجلًا يبكي، فرجلًا يبكي يعني أنه قد أحب بصدق، رجلًا يبكي يعني أنه ما عاد قادرًا على تحمل المزيد، ولكن ما باليد حيلة، إنها عاجزة مثله تمامًا، أطرقت برأسها أرضًا، لتستأذنه بالرحيل تاركة إياه وحيدًا يغلي في بركانه، يدور في مكتبه بلا وعي، يمضي ذهابًا وإيابا باحثًا عن حل، لقد أقسم ألا تكون لغيره، ولن يسمح لذاك الرجل أيًا من كان أن ينتزعها من قلبه، أبدًا لن يسمح.

* * *

تحسنت حالة أخيها عن ذي قبل، وما عاد يلزمه سفرًا، يبدو أن الأطباء بالغوا في توقعاتهم، وما زالوا لا يسمحون له بمغادرة المستشفى، عادت إلى بيتها ترتمي على سريرها، منذ أيام وهي لم تنعم بنوم، وما زال ذاك الحلم لا يقبل بتركها تهنأ بشيء، حاولت أن تبحث له عن تفسير، ولكنها لم تجد، أخبرتها أختها أنها مجرد أضغاث أحلام نظرًا لتلك الظروف الصعبة والضغوطات من حولها، ولكنها لم تقتنع، إن كانت مجرد

أضغاث أحلام فلِمَ يتكرر، ومن أولئك الملثمين؟ ومن تلك المرآة الباكية على أطـــلال رجل ميت في دمائه؟ هيئتها تشبهها، وكأنها هي!

تذكرت خاتمه الذي أهداها بها يوم ذاك اليوم المشؤوم، فســـحبته مـــن أســـفل وسادتها، تضمه إلى صدرها، وما عادت قادرة على إخفاء مشاعرها عن نفسها، تحبه ولم تحب أحد غيره، قربت خاتمه من شفتيها تطبع عليه قبلة طويلة، لتفتح عينيها من بعدها ولا ترى شيئًا، هل انقطع التيار الكهربائي؟ أم من أغلق الأضواء؟ انتفضـــت حينمـــا وجدت خاتمه في يدها تنبثق منه أضواء خفيفة، وكأنها راحت إلى زمن آخر، وما عادت تشعر بوقت، حروف تُكتب ببطء ودقة، كأنها منقوشة بداخله منذ زمن بعيد، تحدق فيه غير مصدقة، هل نامت لتعود إلى أحلامها الغريبة؟!

وما تلك الحروف، وإلام تشير؟ الغرفة من حولها سواد في سواد، حتى أنها لا ترى كفها من شدة ظلمتها، ولا شيء يظهر سوى خاتمه الفضي، يلمـــع في عينيهـــا حـــتى أصبحت عاجزة عن الرؤية، لتغمض عينيها متفادية أضواءه العالية، وما إن فتحتها حتى وجدت كل شيء عاد إلى أصله، وكأن شيئًا لم يكن، عادت الغرفة مضيئة، انطفأ الخاتم في يدها كأول يوم رأته، وما زالت متسمرة في مكانها ترتجف، ليســـت قـــادرة علـــى الصراخ، وليست قادرة على الهرب، وما كانت لتخرج من ورطتها لولا دخول أختها.

ساءت حالته عن ذي قبل، هموم فوقها هموم فوقها هموم، طلب من تلك الصديقة مقابلته في مكان عام خارج الكلية، لابد أن يصل إليها، يخطفها بعيدًا عن هذا الرجل، لن يسمح له بالاقتراب منها ولو كانت روحه هي الثمن، جلـــس ينتظـــر في إحـــدى

الحدائق العامة، ينظر إلى ساعة يده في تأفف، يضرب الأرض بضيق، لِمَ لم تأتِ؟ ظهرت الأخرى تأتي من بعيد على عجل، لتقترب منه معتذرة عن تأخيرها:

- آسفة، ولكن...

قاطعها قائلًا بتذمر:

- لا يهم، أخبريني أولًا، أين تسكن إيناس؟!

فأطرقت الأخرى برأسها قائلة:

- إيناس ليست في بيتها.

ضيق الآخر بين حاجبيه، ليتساءل بقلق، ترى هل تزوجت؟!:

- أين هي إذا؟!

فأجابته قائلة بصوت حزين:

- في المستشفى!

انتفض الآخر من مكانه متسائلًا بفزع:

- ما الذي أصابها؟!

لتقف الأخرى قائلة:

- اهدأ أستاذ كريم، وسأقص عليك الأمر كله، لتتصرف كما تشاء.

قصت عليه كل ما تعرف، لقد حدثتها إيناس بالأمس، لتخبرها بالقصة كاملة، لم تتحمل ما سمعته عنه، أطلعتها صديقتها بتلك الدموع التي لمحتها في عينيه لأجلها، أكدت لها حبه، وما كان من الأخرى سوى البكاء والنحيب.

لقد تورطت مع ذاك المتعجرف لأجل أخيها، علم بحاجتها للمال، استغل ضعفها وقلة حيلتها، وما كانت لتقص على صديقتها شيئًا، لولا أنها ما عادت قـادرة علـى الكتمان، ذلك المتسلط قد أمسكها من ذراعها الذي يؤلمها، وكلما حاولت الـتملص ضغط عليه بقوة لئلا يفلتها، سياسة دنيئة لا تناسب سواه، يستمع إليها في ذهول، أكل تلك الظروف مرت بها وحدها؟ لِمَ لم تطلب مساعدته؟ وهل كانت تظنـه ليخـذلها؟ انتفض من مكانه وكأن النار تشعله، والشرار في عينيه سيحرق كل شـيء، متسـائلًا بغضب:

- أين تلك المستشفى؟

* * *

تجلس في المستشفى متروية في أحد أركانها بعيدًا عن ذاك السمج بصحبة أمها ولا تعرف عن أي شيء يتحدثان، تدفن رأسها بين كفيها، تفكر في أحلام غريبـة، ومـا عادت غريبة بعدما شاهدت ما هو أغرب، إن كانت تلك الأحلام تُعرَض عليها وهـي نائمة، فما أمر ذاك الخاتم الذي رأته بأم عينها وهي مستيقظة؟ انتفضت من مكانها على صوت متملق لا تطيق سماعه، وهو يقترب منها قائلًا بابتسامة باردة تضايقها:

- لِمَ يجلس القمر وحيدًا؟

رمقته بغيظ ولم تعلق، فتابع الآخر قائلًا، وقد اتسعت ابتسامته:

- لقد اتفقت مع والدتك على كل شيء.

ألقت نظرة سريعة على أمها الواقفة على بُعدٍ عنها، فلمحت في عينيها نظرة عاجزة، رأت صرخة في حلقها، ولكنها ما زالت متزنة لأجلهم، فعادت تنظر إليه متسائلة بعدم فهم:

- على أي شيء اتفقتما؟

اقترب منها ليهمس قائلًا بابتسامة سمجة:

- سنتزوج بعد أسبوع من الآن، فلتستعدي.

انتفضت من مكانها قائلة بغضب:

- لا أوافق.

ما زال يقترب منها قائلًا بنظرات أصابتها بالذعر:

- أما اشتقت إليّ إيناس؟

تبتعد عنه بخطوات ثقيلة، لتتسمر في مكانها على صوت آخر يأتيه من بعيد، صوت محفور في قلبها، لم تستطع الأيام أن تمحيه من ذاكرتها، صوت رغم حدته إلا أنه بدا دافئًا رخيمًا.

- إياك أن تقترب منها.

لم يندهش لرؤية هاني أمامه، لقد توقع أن يكون هو منذ أن حضر حفلة خطوبته، لا يصدق أن تلك التي بارك له لأجلها هي من لا يطيق رؤية رجل قريب منها، لا يصدق أنه تركها تجلس بجانبه ولم يتصرف، وعذره الوحيد أنه لم يعرفها، ما زالت الأخرى واقفة في مكانها ترتجف، تخشى وقوع شجارٍ بينهما، وما يهمها سوى واحد فقط، فليذهب الآخر إلى الجحيم، تحركت صديقتها في اتجاهها تطوقها بذراعيها لتهدأ، ويبدو

أن أمها قد دلفت إلى غرفة أخيها لتطمئن عليه، التفت إليه هاني مضيقًا بين حاجبيه ليقول بذهول:

- كريم!

لم ينتظر ليسمع كلمة ثانية، وما رأى بعدها سوى لكمة تصوب إلى وجهه ليتناثر الدم في فمه وأنفه، لكمة أقوى من تلك اللكمة السابقة.

- أيها الحقير، كيف تتجرأ؟

يصوب إليه لكمات متتالية، والآخر يترنح في ذهوله، لم يكن مستعدًا لتلك المباراة وما توقعها، لقد كانت ردة فعل الآخر أسرع من طرفة عينه، علت الأصوات، ليأتي رجال الأمن محاولين سحب الآخر من بين يديه، ولو لم يتدخل أحد، لبات في خبر كان.

* * *

لن ينتقم منه الآن، ولن يرد له الضربة نفسه، وسيرى من يكون هاني أبو المجد، ليس سريع الغضب مثله، نفسه طويل، وعلى استعداد أن يأخذ بثأره ولو بعد سنوات، لقد غفر له اللكمة السابقة مقابل هدية صغيرة، ولكن تلك اللكمات المتتالية ستكلفه الكثير، لن ينتقم منه وحده، تلك المغرورة من تظن نفسها؟ لمجرد أن وجدت ظهرًا تحتمي فيه حتى استغنت عنه وكأنها لم تكن تريده لغير ماله، وما العجيب في الأمر؟ لقد كان على يقين بذلك، ولكنه ظن أنه حينما يقترب منها ستحبه، ليس لها في الطيب نصيب، وطالما أن الطيب لم يعجبها، فلترَ الوجه الآخر.

لقد لمحه من قبل بصحبة أحد الأطباء النفسيين المشهورين الذين قد علا صـــيتهم، حتى أصبح الناس يروهم يتنقلون عبر شاشات التلفاز؟ ذاك المجنون من يظن نفسه؟ هل نسي مرضه النفسي، وهلاوسه التي كان يترنح فيها يوم أن كان في المكتبة؟ مـــاذا لـــو علم الطلاب والطالبات في الجامعة بأن أستاذهم الوسيم مجنون؟ هل ستتغير نظرتهم إليه؟ فلنرَ ما سيحدث، ولكن ليس قبل الحصول على ورقة صغيرة تثبت صحة ما يقول، ثم إعلان في الجرائد، ليشاركه الناس حزنه، ويا لها من فكرة عبقرية! (هكذا قال لنفسه.)

* * *

مرت أيام على تلك المشاجرة، ابتعد هاني عن حياتها، ليقترب منها شخص آخر يروقها قربه، لقد دفع له ماله الذي كان يلوي به ذراعها، يحمـــد الله بداخلـــه أن ذاك الخسيس لم يعقد قرانه عليها، وإلا ما كان ليفلتها أحد من بين مخالبه بتلك السهولة، ما زالت بعيدة عنه رغم أنها تقطن قلبه، وما زالت لا تنظر إليه رغم أنها تسكن بين عينيه، اقترب في اتجاهها بخطوات بطيئة لا تناسب لهفته بداخله، ليقول:

- كيف حالك، إيناس؟

بدا عليها التخبط والتوتر، ولا تعرف لِمَ تضطرب في حضرته، ذاك الشعور لم يروادها حينما كان الآخر قريبًا منها، لتجيبه بصوت ضعيف:

- الحمد لله.

وكأنها تذكرت شيئًا، لتتابع قائلة بتردد:

- ذاك المال الذي دفعته، سأعيـــ...

فأشار الآخر إليها قائلًا بإندفاع:

- أحبُّكِ، وما عدتُ أستطيع تحمل ألم بعدك.

شعرت بدقات قلبها تعانق السماء، وما زادها كلماته غير اضطرابٍ وتخبطٍ، ليتابع الآخر قائلًا بابتسامة:

- هل تقبلين الزواج مني، إيناس؟

شعرت بنفسها يضيق، لتطرق برأسها أرضًا، تزدرد ريقها بصعوبة، فعسى أن يكف كلماته عنها.

- هل تعنين بذلك أن السكوت علامة الرضا؟

ما زالت في صمتها تتخبط، حاول أن يخفف من حدة توترها، فتابع قائلًا بمزاح:

- أنا أعرفك جيدًا، لو لم يكن يروقك الأمر لنعتينني بالأحمق.

ألقت عليه نظرة سريعة، لتعود ببصرها إلى أرضٍ لا تراها، ليتابع مشيرًا إليها بسبابته:

- لابد أن أجد حلًا يجعلك تنظرين إليّ.

تركها وانصرف، يبدو أنه ينوي الحديث مع أمها بشأنها، وما إن تحرك بعيدًا عنها، حتى ارتمت على أقرب كرسي لها، ترتجف وتتخبط، تتضحك وتبكي، تشكر الله في داخلها، فشتان بين هذا وذاك.

* * *

اتجه إلى عيادة الطبيب النفسي، ما زالت نار الانتقام في داخله لم تهدأ، وكأنها تتغذى على الدقائق والساعات، تحمو بمرور الأيام، تطالب بمزيد من الأشلاء لتلتهمها، وما أرادت سوى شخص واحد، لن يلقي بها في النار، فما زال يحبها، سيلقي بذاك

الحبيب أمامها في النار ولن يرحمها، سيحرق قلبها عليه، وسيتزوجها رغمًا عنها، شاءت أم أبت، طبيب نفسي درس علوم الطب كلها، ولكن يبدو أنه لم يتطرق يومًا إلى علم الأخلاق، بمجرد أن لمح حقيبة من المال تُفتح أمامه، حتى نهض من مكانه مستندًا على عرجه يلهث ككلب ألقي إليه عظمة.

يعرج بلهفة متجهًا ناحية الباب ليؤكد على غلقه لئلا يرى أحد انحطاطه، متجاهلًا رؤية الله له، وما الذي يضره لو أخبر شخصًا عابرًا ببعض من أسرار مرضاه طالما أن المكافأة ستكون بهذا الحجم، يعمل منذ سنوات، ولم يجمع مبلغًا كهذا، فما المانع إذًا؟ مجرد معلومة في ورقة تسمنه وتغنيه من جوع، ولا أحد رأى ولا أحد سمع، قص عليه الطبيب كل ما حدث وما رآه من ذاك المُحاضِر الغريب من نوعه، لم يتوصل إلى الآن إلى تشخيص نهائي لحالته، ولم يعرض عليه حالة مشابهة من قبل، ولكن هاني لم يقتنع بأن ذاك المُحاضِر مريض، ربما يختلق قصة ما، فتلك العقول لا أحد يعرف كيف تفكر، وبخاصة أن نتيجة الآشعة لم تظهر أنه يعاني خللًا، إذًا لا بد من الخطوة التالية.

* * *

تعافى آخر العنقود إلى حد كبير، فسمح له الأطباء بالعودة إلى بيته، ولكنه ما زال يلزمه رعاية، يتنقل بين جامعته والمستشفى، يخشى أن يعود ذاك المتعنت فيضايقها ثانية، لابد من شيء يقربها إليه، فما زالت الحواجز بينهما كبيرة، وما من حل سوى عقد القران، خرج من جامعته متوجهًا إلى بيتها، تبدو المسافة طويلة، فلِمَ ذاك السائق لا يزيد من سرعته؟ وصل إلى بيتها، ليصعد درجات سلمه في هدوء، يفكر فيها ولها،

يشفق على حالها، هل تعيش حبيبته في ذاك البيت المتواضع، سيبني لها قصرًا في قلبـــه، وسيعوضها عن كل نقص أصابها، فقط تنتهي تلك الخطوة على خير.

طرقات علي الباب خفيفة، لتفتح له أمها مشيرة له بالدخول مرحبـــة، تحـــرك بخطوات بطيئة، متجها إلى غرفة الضيوف، وها هو ينوي الحديث مع أمها عن الموضوع نفسه، جلست الأم على كرسي مجاور له، ترحب به وتطمئن على حاله، و آه لو تعرف أنه مشتت بدون ابنتها، ولن يرتاح إلا بقربها، لن يراوغ طويلًا ولن يماطل، ســـيتحدث فيما أتى لأجله، اعتدل في جلسته، ثم تنحنح قائلًا بابتسامة:

- أتذكرين ذلك الموضوع الذي حدثتك عنه من قبل؟

ابتسمت الأم لتهز برأسها مؤكدة، فتابع الآخر قائلًا:

- لقد تعافى يوسف بفضل الله، وقد اتفقنا على أن نعقد القران بعد خروجه سالمًا من المستشفى.

أطرقت برأسها أرضًا، لتتدارك الموقف قائلة:

- ولكنك تعلم أن الامتحانات على أبواب و....

فقاطعها قائلًا باندفاع:

- وهل سأنتظر إلى أن تنتهي الامتحانات؟!

ابتسمت الأم من لهفته واندفاعه، فشعر بالحرج من كلمات لفظها بغير إرادته، ليحسن موقفه قائلًا:

- حسنًا، لا مشكلة.

ثم عاد ليقول في نفسه:

- سأنتظر وأمري إلى الله.

* * *

أول يوم في الامتحانات... توجهت إلى كليتها تحتضن كتابها لعله يتشبث في قلبها، فتذكر كلماته حينما تحتاج إليها، تلك الضغوط التي مرت بها أثرت على حالتها الدراسية كثيرًا، تسير بصحبة صديقتها صامتة لا تتكلم، تظن لو أنها تكلمت لتبخرت كل المعلومات المشتتة من رأسها، لمحته ينتظرها أمام المدرج، ولكنه لم يتقرب منها ولم يحاول أن يكلمها، وكأنه خشي مضايقتها، تصنعت أنها لم تره، لتمضي مسرعة إلى داخل المدرج، وكأنها تهرب من حيوان مفترس يهاجمها.

جلست في مكانها تتنفس بعمق، شهيق طويل تحبسه بداخلها لثوانٍ ثم زفير يخرج ببطء لعلها تسترخي، وهل كانت تحتاج إلى مزيد من التخبط؟! اقتربت منها صديقتها قائلة ابتسامة:

- هل رأيتيه وهو ينظر إليك؟

تصنعت عدم الفهم لتتساءل بتوتر:

- من؟!

غمزتها الأخرى قائلة بابتسامة ذات معني:

- كريم الوسيم.

رغم أنها في موقف لا تُحسد عليه، إلا أن ذلك الاسم الذي اختارته صديقتها جعلها تضحك، لتتابع الأخرى قائلة:

- آه لو أعثر على رجل يحبني، رجل واحد يا ربي في هذا العالم البائس.

ثم أشارت إلى صديقتها قائلة بطريقة تمثيلية:

- ألا أشبه؟ أقسم أنني أشعر بجفاف عاطفي.

كتمت الأخرى ضحاتها، قائلة:

- كُفّي عن تلك الكلمات، وإلا سأنفجر بالضحك ولن يوقفني أحد.

عادت إلى مكانها وهي تقول ضاحكة:

- اضحكي، صديقتي، فالحياة فانية ولا شيء يستحق لنبكي عليه.

* * *

ها هو قد اطمئن عليها، رغم أنها ما زالت بعيدة عنه، إلا أنه أفضل من اللاشيء، تحرك خارج الجامعة، ليتجه خلسة إلى الطبيب النفسي، يتمنى ألا يراه أحد، وهو يصعد درجات سلم عيادته، فلو رآه زميل يعرفه، فما سيكون مبرره ليفلت من سؤاله؟ وما إن وصل حتى وجد العيادة مغلقة، ولا أحد يراه، شك لبعض الوقت في نفسه، ألم يكن هذا المكان به طبيب نفسي، أم أنه كان يتوهم؟ نزل درجات السلم يتخبط في حيرته ليصطدم في رجل يأتي من الخارج، يبدو من هيئته أنه بواب، فاستوقفه قائلًا في تشكك مشيرًا بسبابته للطابق العلوي:

- ذلك الطبيب.....

فقاطعه الآخر قائلًا:

- لقد سافر منذ أسبوع مضي.

فاندفع كريم متسائلًا:

- ومتى سيعود؟

ليمط البواب شفته السفلية مجيبًا:

- العلم عند الله.

لم يزد بكلمة أخرى، أطرق برأسه أرضًا ليمضي من أمام البواب، فسمعه يقول بصوت هامس:

- لا حول ولا قوة إلا بالله، شباب كالورد ولكن...

ما سمع غير تلك الكلمات ليلتفت إليه في ذهول، ترى ما الذي قاله هذا الرجل؟ هل يظنه مجنونًا؟ هل يبدو عليه إحدى علاماته؟ كاد أن يعود إليه ليتأكد من حقيقة ما سمع، ولكنه خاف أن يؤكد له بتصرف كهذا أنه مجنون رسمي، فلينصرف بصمت خير له.

* * *

انتهت الامتحانات بعدما كادت أن تنهيها، وما زال الآخر على عهده ينتظر، جهز كل الأوراق التي يمكن أن يحتاجوها، وتمت كل الإجراءات على خير، ليلتصق اسمها بجانب اسمه على ورقة بيضاء، لقد مر عليه الكثير من الورق، ولكنه يقسم أنه تلك الورقة أجمل ورقة رآها في حياته كلها، ما زال يشكك في وجودها، وما زال يظن

نفسه يتوهم، ولكن لا يهم، إن كان حلمًا، فنعم الحلم هو، سيحياه معها عمره كله، ولكن يستيقظ منه أبدًا.

اقترب منها يزيح النقاب عن وجهها، وما زالت الأخرى تنظر إلى الأرض في حياء، لقد كان ينتظر تلك اللحظة بفارغ الصبر، وما إن رآها ولمح تفاصيل وجهها، حتى ضمها إلى صدره لتتداخل ضلوعها بأضلعه فيتشابكان وكأنهما صارا كيانًا مشتركًا واحدًا، لم يفسح لها المجال لتتراجع، وما عاد يسمح، ليهمس في أذنها قائلًا بصوت خافت:

- هل عرفتِ في أي مرحلة عمرية يكتمل الإنسان؟

ابتسمت في هدوء تخفي وجهها في قميصه، وكأنها تختبيء منه فيه، وتهرب منه إليه، الآن فقط أدركت المعني الحقيقي للكمال.

* * *

ما زالت الأيام على عهدها تمر، ما بال الحياة أضحت تبتسم له بعدما نسي أنه لا سعادة؟ نسي كل شيء، وما عاد يفكر في تلك الأعراض التي مرت عليه من قبل، وما عادت تشغله، لن يبحث عن تفسير لها، ولن يفكر فيها من الأساس.

جلس بجوارها يتأمل وجهها في هدوء، وما زالت لا تنظر إليه، تلك القصيرة المتمردة ستفقده عقله، وهل يحتاج إلى مزيد من الجنون؟ إنه مجنون رسمي بشهادة الأطباء، اقترب منها متسائلًا بهدوء:

- لِمَ لا تنظرين إليَّ؟

بكل تأكيد لن تجيبه، وما من إجابة تشفع له، إنه الآن زوجها على سنة الله ورسوله، وما من مهرب، ارتفع صوته ليقول بنبرة حادة أثارت الرعب بداخلها:

- إيناس!

انتفضت من مكانها، لتحملق فيه بذهول، فأشار إليها بكفه قائلًا بابتسامة:

- فقط اثبتي على تلك الوضعية، وإياكِ أن تنظري للأرض.

عادت لتنظر إلى الأرض ثانية وكأنه لم يقل شيئًا، ما زالت لا تمتلك الجرأة الكافية لتواجه عينيه، لقد استخدم الصوت العالي ولم يجدِ نفعًا، هل ينام على الأرض إن كانت مهووسة بالنظر إليها؟ ولكن ربما لو فعل لنظرت إلى السقف، حسنًا، سيستخدم معها أسلوب التهديد، فربما يفيد.

- إن لم تنظري إليَّ كما أنظر إليك فسأرحل.

تحك كفيها بتوتر، لقد وضعها في مأزق، لِمَ لا يتركها تنظر إليه من تلقاء نفسها؟ ذلك الطلب رغم أنه يبدو سهلًا إلا أنها عاجزة عن تنفيذه، يبدو أنه أشفق لحالها، فقرر ألا يضغط عليها ثانية، ما زالت لم تتعود قربه، والأيام وحدها كفيلة لتغيرها، فشد على كفها مازحًا:

- لقد عفوت عنكِ، كفى توترًا، فأنتِ توترينني.

ابتسمت من حركاته الطفولية، ولولا أنها ما تعودت الضحك في حضرته لانفجرت ضاحكة، ابتسامتها أسرت قلبه لتزيده بها تعلقًا وشغفًا، وكأنها تذكرت شيئًا، فتحدثت قائلة:

- أتذكر ذاك الخاتم الذي أهديتني به يوم....

ذلك اليوم جعل الدماء تغلي في عروقه، فلِمَ تذكره به الآن؟ فقاطعها قائلًا بضيق:

- ما له؟

ضيقت بين حاجبيها قائلة بعدم فهم:

- أمره عجيب.

ليتساءل قائلًا:

- كيف؟!

أشارت إليه لينتظر، ثم نهضت من مكانها، وما هي إلا ثوانٍ لتعود وفي يدها الخاتم نفسه، مشيرة إليه قائلة بتشكك:

- يبدو وكأنه مسحورٌ.

عقد بين ذراعيه متسائلًا بدهشة:

- لِمَ تقولين ذلك؟

قصت عليه ما حدث، يوم أن غلقت الأضواء من حولها، ليشتعل هذا الخاتم في يديها، منقوشًا عليه بعض الحروف، يستمع إليها في ذهول، وكأنها القصة نفسها، هل هناك تفسير لتلك الأحداث؟ أم أنها مجنونة كزوجها؟ سكت قليلًا يفكر، يفرك رأسه بأطراف أصابعه، ليتسائل قائلًا:

- هل يمكنك أن تريني ما حدث؟!

وكيف ستقبل خاتمه في حضرته؟ إنها استحت أن تذكر ما فعلته في قصتها، فكيف تصور المشهد نفسه أمام عينيه؟ تجمدت في مكانها وكأنها وقعت في ورطة تبحث عن أحد يغيثها منها، فتدخل الآخر مضيقًا بين عينيه بعدم فهم:

- ما الذي تنتظرينه، إيناس؟!

تحججت قائلة بتوتر:

- ربما ما حدث لا يراه أحد غيري.

فأشار إليها قائلًا بلهفة:

- دعينا نجرب.

إذًا لا مفر، أغمضت عينيها ببطء، لتطبع قبلة طويلة على الخاتم، وفجأة بدأت الأضواء تختفي ليحل الظلام في المكان، وكأن لا أحد في الشقة معهم، وكأنهما في زمن آخر وفي مكان آخر، يضيء الخاتم في يدها ببطء، يرتجف كفها رغمًا عنها، فمد الآخر إليها يده، ليحتوي يدها بقوة، وما إن تلامس كفه بيدها حتى ظهرت الحروف واضحة كبزوغ الشمس، لتلقي بالخاتم من يدها، ويعود كل شيء إلى أصله.

انتفض كريم من مكانه قائلًا:

- هيا، ارتدي نقابك، سنخرج الآن.

فتساءلت بعدم فهم:

- إلى أين؟!

ليجيبها الآخر بجدية:

- إلى المكتبة.

قامت لتنفذ ما يقول رغم أنها لم تفهم شيئًا، والآخر يجلس في مكانه كمن يجلس على النار، لابد أن يوصل الحلقات ببعضها، فلعله يوقن بأنه ليس مجنونًا، طيلة الطريق وكلاهما يترنحان في ذهولهما، كل يفكر في ما رأى، يبحث عن تفسير منطقي لتلك الأحداث، تجلس بجانب نافذة السيارة ملتصقة كتفها بكتفه، أحدهما قصير والآخر طويل، فالتفت إليها متسائلًا بابتسامة:

- بعيدًا عن كل ما رأينا، لِمَ كنت تقبّلين خاتمي؟

انتفضت في مكانها تتخبط في توترها، لِمَ يتعمد إرباكها؟ هل يتلذذ برؤيتها متوترة؟ فتابع الآخر متسائلًا:

- أتحبينني، إيناس؟

أبعد كل هذا التخبط ما زال يسألها؟ يعرف أنها تحبه، ولكنه يريد أن يسمعها منها ليطمئن، ما زالت جامدة في مكانها تهرب منه بنظرات عينيها المشتتة، تنظر عبر النافذة على طريق لا تراه، فوالله لا ترى أحدًا غيره، لتلامس يده يدها، يقبض على كفها بقوة، وكأنه يبثها الأمان قائلًا:

- سأسمعها منكِ الآن، وتلك المرة لن أعفو عنك.

ابتلعت ريقها بصعوبة، لِمَ لا يرأف بحالها؟ فأردف قائلًا بجدية واصرار:

- إن كنتِ عنيدة، فأنا أكثر منك عندًا، ولن أتراجع عن موقفي، هيا قوليها، ولا تخشين أحد.

أطرقت برأسها أرضًا قائلة بصوت هامس:

- أحبِّكَ.

شعر بنبضات قلبه تتواثب، ويبدو أن الأمر راقه، ليضيق عينيه قائلًا:

- لم أسمع شيئًا.

عادت لتقولها بنبرة ضعيفة، ليكرر الفعل نفسه وكأنه لا يسمعها، ويبدو أنه تعمد مضايقتها، مما أجبرها على النظر إليه قائلة بتذمر:

- أحبِّكَ، كريم، ألا تسمع؟

انفعالاتها المتوترة أجبرته على الضحك، فطوقها بذراعه، يستند برأسه على رأسها، تلك هي قطته المتمردة قد عادت إلى طبيعتها الشرسة.

* * *

وصلا إلى المكتبة يشتبك كفيهما في حب، فتذكر أمر ذاك الخاتم العجيب، لينحدر يمين المكتبة يتلفت يمينًا ويسارًا في ذهول لاحظته الأخرى فتساءلت قائلة في عدم فهم:

- ما الأمر، كريم؟

شخص فاه في حيرة، يضغط على رأسه في عدم وعي قائلًا بدهشة:

- ذلك المحل الذي اشتريت منه الخاتم، أين اختفى؟

تنظر إليه في حيرة من الأمر تحاول أن تتوصل إلى تفسير منطقي لتلك العجائب من حولها، ولكن يبدو أن العقل قد اعتذر عن الموقف، وما عاد يمكنه التصرف مطلقًا، لن ينتظرا طويلًا، لابد من دخول المكتبة الآن، وما من وقت غير الآن، وما إن دلفا إلى

الغرفة حتى شعر بحرارة الرباطة في جيبه، فأخرجها من جيبه على عجل، وراح ليجلس سريعًا على الكرسي، وهي بجانبه تراقب ما يحدث في ذهول، وما إن لامست الرباطة موضع جرحه حتى عاد المشهد نفسه يتكرر أمامه، التفتت إليها متسائلًا بتشكك:

- هل ترين شيئًا؟!

فهزت رأسها في توتر مؤكدة، بدأت الحروف تتكشف، فأمسكت بكفه تحاول فك شفراتها، تتهجاها ببطء، لينطلق لسانها قائلًا بهدوء:

- نامسيا.

وما إن نطقت بهذا الاسم حتى أُغلقت كل الأضواء من حولهما، لينبثق صندوقا خشبيًا من العدم يبدو مبللًا، فتحرك كريم من مكانه يهرع إليه، يحمله بيده الأخرى، لتلتقطه إيناس منه، يفتحانه بلهفة وذهول، فوجدا كتابًا، أو ربما ليس كتابًا بالمعني الحرفي للكلمة، أوراقًا منذ زمن آخر، مصفرة اللون تبدو قديمة، كُتبت بلغة غير العربية أو حتى الانجليزية، لغة لم يروها من قبل، والعجيب أنهما تمكنا من فهمها وكأن هناك مترجمًا يتولى أمر مساعدتهما، تتوهج الأوراق في أيديهما رغم قدمها والظلمة من حولهما، يتقلبان بين الصفحات في ذهول وتخبط، وكانت المقدمة:

" على العهد بقينا، ومن الماضي أتينا، نفتح عهدًا قديمًا، نحيي حبًا دفينًا، يتنقل عبر العصور، في القلوب محفور، ربما مات أصحابه، ولكن أصحابه ما زالوا هنا، في الحاضر."

ينظران إلى بعضهما في ذهول، يتنقلان بين أحداثه بسرعة الريح وكأنهما يعيشان فيها، تلك المواقف نفسها متشابهة، لقاؤهما عند نهر النيل في المكان نفسه، تلك القطعة

من القماش من أكمامها حول معصمه، تلك الحروب والدماء والملثمين اللذان رأتهما في أحلامها من قبل، أباها المتعثر في دمائه تبكيه، كارولولي وتصرفاته المتشابهه مع خطيب أختها السابق، ولابد أن حبيبته ما هي إلا واحدة من بين جواريه، الأسماء مختلفة ولكن الصفات واحدة، تتنقل بين الأشخاص عبر العصور، وعلى مر الزمان، وإن اختلفت مسمياتها، ليست العبرة بالأسماء طالما أن الصفات واحدة.

لا يعرفان كم مر من الوقت، وما زالا يسافران بين الأحداث، لينتهيا عند آخر ورقة منقوشة حروفها باللون الأزرق، وكأنها قطرات من ماء نهر النيل:

" بعدما تنتهي من كتابة قصتها معك، أعيدا الكتاب معًا إلى النهر؛ ليكون في مأمن، فما زالا سيشهد قصص حب لن تنتهي."

وما إن أغلق الصندوق على أوراق قصته التي كتبها لتضاف بجانب قصة من سبقوه حتى عاد كل شيء إلى أصله وكأن شيئًا لم يكن، حتى أنه لا يفهم كيف تمكن من كتابة قصته معها بتلك السرعة، وكأن الأوراق هي من تكتب، وقلبه هو من يملي عليها، رفع رأسه ينظر إليها، يحملق فيها غير مصدق، يتخبط في حيرته، ليشير إليها في ذهول قائلًا:

- أنت نامسيا!

تلتفت إليه الأخرى مشيرة إليه بيد مرتجفة، وهي تقول:

- وأنت كاي رع.

وفي صوت واحد انطلقا قائلين، وقد اتسعت حدقة عينيهما:

- وهاني هو هاتورلا؟!

انفجرا ضاحكين في موقف لا يحسدا عليه، فتذكرا أنهما في مكتبة لها قواعدها ونظامها، وتلك السطور الأخيرة من القصة، ولكن كيف سيخرج بالصندوق من المكتبة؟ أشارت إليه إيناس قائلة:

- بكل تأكيد لن يراه أحد، فيبدو أنه يمتلك خاصية تخفيه عن الجميع.

هز رأسه رافضًا، وهو يقول:

- لا أضمن ذلك، ولابد أن أحترس.

لاحظ أنها ترتدي خمارًا، فأشار إليها أن تخفيه أسفل خمارها، ليخرجا من المكان متوجسين في حذر، عائدين إلى الجهة الخلفية من المكتبة، وها هما يقفان أمام نهر النيل، وها هو قد حقق وعده، لقد أقسم بداخله ألا يعود إليه إلا بصحبتها، ولأنه آمن بها وبحبه، حافظ على العهد.

غمزها قائلًا بابتسامة:

- لقد ألقى به كاي رع وحده، فهل ستلقينه أنتِ أم ألقيه أنا؟!

فمدت به إليه قائلة بعينين مبتسمتين:

- الرجال قوامون على النساء.

ألقى بالصندوق ذاكرًا اسم الله عليه، ليرتطم في الماء ويختفي، وكأن أحدهم في الأسفل قد تلقفه منهما، طوقها بذراعه لتستند على صدره، يراقبان حركات المياه في

حب، يحمد الله في داخله أن قصته معها لم تنتهِ كما انتهت في الماضي، لقد كانت حقا نهاية حزينة، ولكن حزنها قد انتهي بقصتهما.

يبدو أن هناك شخص ما يراقبهما منذ أن خرجا من البيت إلى أن وصلا إلى النهر، بكل تأكيد لم يرَ شيئًا من تلك المشاهد، ولا تفسير منطقي يبرر له ما يرى، سوى أن يحصل على ذاك الشيء الذي ألقيا به في النهر، انتظر حتى تحركا من المكان، ثم راح يعدو إلى النهر يتخطى الأسوار، وما إن لامست يده صفحة الماء، حتى تلقفته الأيدي نفسها من الأسفل، لينتهي هاني وينتهي هاتورلا وينتهي كل من سولت له نفسه أن يحارب الحب وينتصر.

تتشبث بذراعه يسيران جنبًا إلى جنب، فرفعت برأسها تتأمل وجهه بنظرات دافئة، ليقول بطريقة تمثيلية:

- كفي عن النظر إليّ ، لقد أحمر وجهي!

ضيقت بين عينيها قائلة بابتسامة:

- ولكني أحبِّكَ.

حملق فيها غير مصدق، وهو يقول:

- هل جننت، إيناس؟!

مطت شفتيها أسفل نقابها، قائلة بحب:

- مجنونة بك.

يضرب كفًا على كف قائلًا في ذهول:

- يبدو أن العقدة قد انفكت.

لتتابعه الأخرى قائلة:

- ولن أرحمك بعد اليوم.

فأجابها قائلًا بطريقة تمثلية وهو يشير إلى السماء:

- فليلطف الله بي.

لاحظت أنه يسير في اتجاه آخر غير اتجاه البيت، فاستوقفته متسائلة بعدم فهم:

- إلى أين؟!

ضيق عينيه قائلة بنبرة تحدٍ:

- إلى أحمنانون.

* * *

بعد مرور عدة أيام..... تم العثور على جثة شاب أصلع ذو حاجبي كثيفين، ممـــدا على ضفاف نهر أبي أن يبتعله فلفظه بعيدًا عنه، لتكون جثته عبرة لكل من سولت لـــه نفسه أن يحارب الحب باسم الحب، وها هو الحب نفسه قد تبرأ من خسته.

* * *

بين الماضي والحاضر يحيا الحب، يضحي لأجله الصادقون، ويرعاه خلفاؤه المخلصـــون، وما زالوا مستمرين.

حتى يبقى.....

كريم.

بقلم/ ماجدة السيد سعد.

.

تمت.

فاطمة عبدالحميد

روائية مصريه مواليد الغربيه 1995،بكالوريوس علوم قسم كيمياء ميكروبيولـــوجي جامعة طنطا ،حاصلة على دراسات عليا بالكيمياء الحيوية ، دكتور كيميائي بشركة ASGللصباغة والتجهيز.

نامسيا أول رواية يتم نشرها لي.

* * *

ماجدة السيد

روائية مصرية مواليد الغربية 1995 ،حاصله على بكالوريوس تربية قسم فلسفه جامعة طنطا ، نامسيا أول روايه منشوره لى ، كانت أول بدايتى فى روايه حب تخطى الكيلوجرامات ونشرت العديد من الروايات القصيرة على الموقع الخاص بى.